



الفرد أدلر سيكولوجيتك في الحياة كيف تحياها؟



علي مولا

أ.د. عبد العلي الجسماني
تأليف

**سيكولوجيتك في الحياة:
كيف تحيها؟**

سيكولوجيتك في الحياة كيف تحياها / علم نفس

ألفرد أدلر / مؤلف

د. عبد العليّ الجسماني / معرّب

الطبعة العربية الأولى ، ١٩٩٦

حقوق الطبع محفوظة



نشر مشترك :

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسي :

بيروت ، ساحة الجنزير ، بناية برج الكارلتون ،

ص.ب : ١١-٥٤٦٠ ، العنوان البرقي : موكيالي ، هـ ١/٨٠٧٩٠٠

تلکس ٤٠٠٦٧ LE/ DIRKAY



الدار العربية للعلوم

بناية الريم، شارع ساقية الجنزير ، عين التينة

هاتف ٨٦١٣١١-٨٦٠١٣٨-٨١١٣٨٥ ، ص.ب : ١٣-٥٥٧٤

بيروت ، لبنان / هاتف وفاكس دولي : ٤٧٨٢٤٨٦ (٢١٢) ٠٠١

التوزيع في الأردن :

دار الفارس للنشر والتوزيع ، عمّان

ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٦٠٥٤٣٢ ، فاكس ٦٨٥٥٠١

تصميم الغلاف والإشراف الفني :

ستيب®

لوحة الغلاف :

الصف الضوئي :

ساجدة العجوة ، عمّان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced , stored in a retrieval sysem or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر .

سيكولوجيتك في الحياة: كيف تحياها؟

تأليف: ألفرد أدلر

تعريب: أ.د. عبد العلي الجسماني



المؤسسة العربية
للدراسات والنشر



الدار العربية للمؤلف
Arab Scientific Publishers

الطبعة الأولى
1417 هـ - 1996 م

جميع الحقوق محفوظة للنَّاشِر



الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

مبنى الخدمة شارع سلفية الجندب - بنهاية القريه
مستفيد: 785107 - 603118 - 860138 (961-1)
هاتف وفاكس بولي: 478-2486 (212) 1 - ص.ب. 13-5574 بيروت - لبنان
بريد الكتروني: bchebaro.arabpub@dm.net.lb
المرآة على شبكة الانترنت: <http://www.dm.net.lb/eap/index.html>

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة المعرب :	٧
الفصل الأول : نحن ومعنى الحياة	٢٣
الفصل الثاني : الفرد بين العقل والجسد	٥٣
الفصل الثالث : الإنسان ومشاعر القصور والتفوق	٧٥
الفصل الرابع : بواكير الذكريات وآثارها الباقيات	٩٩
الفصل الخامس : وللأحلام معناها	١١٧
الفصل السادس : الجريمة ودرء مخاطرها	١٣٧
الفصل السابع : الحب ورابطة الزواج	١٥٧
من آثار المعرب	١٦٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المحرّب

سيكولوجيتك في الحياة : كيف نحياها ؟

- ١ -

سيكولوجيتك في الحياة : كتاب أودع الفريد أدلر صفحاته خلاصة تجاربه و خبراته . الفريد أدلر طبيب الأمراض النفسية المعروف ، من أصل نمساوي ، و مؤسس مدرسة علم النفس الفردي ، يعارض التحليل النفسي (الفرويدي) في تضخيمه للجنس .

يؤكد أدلر في منهجه التحليلي و العلاجي دور (الأنا) الشعوري ، و فاعلية الأهداف التي يسعى إليها المرء في الحياة ، الأهداف التي يجب ان تكون منسجمة مع أهداف المجتمع و أن تكون إنسانية و مشروعة .

لذا نجد أدلر في سيكولوجيته يعزز أهمية الأهداف التي تنمّ عن نضج في مقابل الأهداف الطفولية التي تتسم بالفجاجة .

يذهب أدلر إلى أن اضطرابات السلوك ، و الأعراض العصابية التي تنشأ عن التعويض الزائد عما يعانیه الشخص معاناة لاشعورية . وهذا النقص المحسوس ، غير المنظور ينجم من نقص ، و قصور ، و شعور بالدونية ، و ما يصيب نزعة الفرد إلى التفوق ، و العلو ، من إحباط و حرمان .

يرى أدلر ، وهو على صواب فيما يذهب إليه ، أن أهداف الإنسان الرئيسية ، تتلخص في :

- ١ - التوافق الاجتماعي .
- ٢ - النجاح المهني .
- ٣ - الإشباع العاطفي بالشكل المشروع .
- ٤ - الارتواء الروحي .

يكثر أدلر التحدث في مؤلفاته ، و في مؤلفه هذا بالذات ، عن عقدة النقص ، أو عقدة الدونية ، و يراها ، المتحكمة لا شعورياً بسلوك الفرد . و يعرفها بأنها مجموعة من الأفكار ذات شحنة انفعالية قوية ، تدور حول ما يشعر به الفرد من قصور حقيقي أو وهمي . هذا الإحساس الشعوري منه و اللاشعوري يدفع الشخص ، إذ يشعر بالنقص ، إلى التعويض . وهذا السلوك التعويضي يمكن أن يحقق للشخص أهدافاً ذاتية أو اجتماعية قيمة ، هذا في حالة النجاح . أما إذا أخفق التعويض ، فإن المآل الذي ينتهي إليه الشخص هو العصاب .

ذلك هو ملخص رأي أدلر بشأن عقدة النقص و التعويض . وهو رأي يخالف بعض الشيء آراء زملائه من أمثال فرويد و يونج .

فيونج تكلم عن عقدة النقص عرضاً و حيثما إقتضت الضرورة ذلك و متى دعت الحاجة . إذ كانت اهتماماته تتمحور حول اللاشعور الجمعي و التحليل النفسي للأثر الإنساني كما يستمد من حياة المرء اليومية ، و يتساوى في ذلك منطوق النتاج الشخصي .

أما فرويد فله مجالاته المتعددة أيضاً ، و حين يتحدث عن العقدة ، فإنه يعرفها بأنها مجموعة من الانفعالات و الأفكار المكبوتة الناتجة عن

خبرات صراعية ذات شحنة وجدانية متأججة محتدمة . و العقدة، بالرغم من إنها لا شعورية ، فأنها تؤثر في التفكير وفي السلوك ، إذ هي تطبع السلوك بطابع الانحراف و الشذوذ ، كعقدة أوديب لدى الأولاد ، وعقدة اليكترا عند البنات .

علم النفس الفردي نظرية صاغها الفريد أدلر ، حتى أصبحت مدرسة من المدارس الفكرية في علم النفس المعاصر ، و تقوم على القول بأن لكل فرد صياغة فريدة من الدوافع ، و السمات ، و الاهتمامات ، والقيم .

تذهب نظرية أدلر الخاصة بعلم النفس الفردي إلى أن كل فعل يصدر عن الشخص يحمل أسلوبه المتميز الذي يجعله متفرداً عن غيره . وهنا تبرز نقطة بالغة الأثر في هذا الشأن ، ذلك انه طبقاً لهذه النظرية لا يكون للدوافع الجنسية التي أكدها فرويد في حياة كل إنسان ، لا يكون لها إلا دور ثانوي حسب منطق علم النفس الفردي . وهذا مما جعل علم النفس الفردي ، كما صاغه أدلر ، أكثر تقبلاً من لدن معظم المختصين بعلم النفس .

أكد أدلر في علم النفس الفردي أن أسلوب المرء في الحياة هو الذي يحدد الطريقة التي يتبع بها حاجاته الحيوية : الجسمية ، الفسيولوجية منها و النفسية على النحو القويم .

وهذا النهج من شأنه أن يضيفي على الشخص نوعاً من الخصائص يتفرد بها وحده وهذا النهج من شأنه أن يضيفي على الشخص نوعاً من الخصائص يتفرد بها وحده ، وهذا أيضاً يجعل ثمة من الفروق بين الأشخاص ما يمكن أن تؤدي الى فروق سلوكية تسبغ على كل فرد ما

يميزه عن سواه ، أياً كان سلوكه : إيجابياً أم سلبياً .

ففي كتابه : *سيكولوجيتك في الحياة* ، يناقش أدلر وضع الإنسان في حياته هذه منذ لحظة إطلالته على الدنيا ، مروراً بما يتعرض له وكيف يؤثر كل ذلك في وضعه النفسي و العقلي ، وفي تكييفه الاجتماعي ، و انتهاءً بما يؤول إليه كل ذلك من سلوكيات ، منها ما يرضي الأخلاق و النواميس الاجتماعية ، ومنها ما ينقص على الآخرين معاشهم الحياتية .

فالفردية ليست مجرد جانب من جوانب الجسم ، لأنها أيضاً تكون صفة جوهرية لكل جزء مركب من أجزاء جسم الفرد ، و لكنها تظل تقديرية نسيجها كله فطري و تنشئي . ومع ذلك فإنها لا تلبث أن تبسط صفاتها و أفعالها بالتدرج على بيئتها كلما انتشر تأثير الفرد في الزمان و المكان .

كل شخص يستجيب لظروف بيئته بطريقته الخاصة ، متأثراً بماضي تنشئته : قسوة كانت أم تدليلاً مفرطاً . فيختار بعد أن يشتد عوده ، ما يزيد من تفرده بين ظهرائي المجتمع : فقد يسهم في البناء الخير أي إسهام ، وقد يعكر صفو الحياة فيزيد في غباشتها و إظلامها أي إظلام .

— ٢ —

المفروض أن يصبح الفرد مركزاً لوجوه نشاط محددة. كيف؟ أن الإنسان جسد وروح . وان الروح يفترض أن تصفو من الاوضار . وان الروح ، كما هو معلوم ، جوهرة الجسم ، فلا يمكن فصل الروح عن الجسد ما بقي الإنسان حياً ، ولا يمكن فصل هيكل الجسد عن وظيفته ، ولذلك فإن المرتقب هو أن يتأتى السلوك كما يرتضيه الوسط الاجتماعي

وليس خروجاً عليه وعلى نواميسه .

في علم النفس يميز أدلر بين الإنسان و الفرد . الفرد إنسان ، و هو في ذلك لا يماري . يرى أدلر أن الفرد الذي تتحقق جميع إمكانياته لا يشبه الإنسان الذي يصوره الأخصائيون . إن الفرد عند أدلر أكثر بكثير من مجموع الحقائق التي كدستها العلوم الخاصة . إننا لا نفهمه في كليته لأنه يشتمل على مناطق شاسعة مجهولة . كما إن إمكانياته لا تكاد تنفذ ، فهو ، كجميع الظواهر الطبيعية الهائلة ، لا زال غير مفهوم ، رغم التقدم الفسيح الذي حققه علم النفس الحديث .

ينعقد الإجماع بين علماء النفس على أننا حينما نتأمل الفرد على ضوء تناسق نشاطه العضوي و الروحي ، فإننا نحس إزاءه - وهو إحساس نحو أنفسنا بطبيعة الحال - بعاطفة عميقة من تقدير هذا التكوين العجيب . إن مثل هذا الفرد ، إذا ما أحسننا تقويمه ، إنما هو حقاً مبدع في هذا العالم .

يرمي أدلر فيما يرمي إليه ، إلى الحرص على أن ينعم المجتمع بالطمأنينة و الاستقرار . لكنه يرمي في ذات الوقت إلى أن يعيش الفرد في كنف المجتمع معترفاً بفرديته لينعم هو أيضاً بالعيش الهنيئ .

فأدلر لا يرى مبرراً إلى أن يتجاهل المجتمع الفرد ، ولا يحسب حساباً إلا للمجموع ممن يطلق عليهم : (بنو الإنسان) ، بصيغة الجمع . ولذا يخلص أدلر إلى أن الخلط بين الفرد و بني الإنسان يفضي إلى اضطراب الآراء يترتب عليه عدم التميز بين فرد و فرد من حيث الفروق الفردية . فلو أننا كنا متساوين - نحن البشر - لأمكن أن يتساوى الناس جميعهم في السلوك و العطاء . بيد أن لكل منا شخصيته و فرديته الخاصة ، ولا يمكن أن يعامل كل واحد و كأنه شاخص جامد أو ينظر إليه و كأنه

مجرد رمز لمخلوق آدمي و حسب .

بالطبع ، يؤكد أدلر في كتابه هذا : سيكولوجيتك في الحياة ، على أنه لا مفرّ من وجود المدارس ، فهي تحقق إلى حد ما ، حاجة الطفل إلى الاتصال بغيره من الأطفال الآخرين ، لكن لا مندوحة من التوجيه الصائب فلا يجب أن يكون التعليم مصاباً بالشلل أو يتبطنه الخلل . والتوجيه الصائب هو الأساس الذي تبنى عليه بقوة فردية الفرد ، وأنه يعود إلى الوالدين بالدرجة الأولى ، فهما وحدهما ، وبالأخص الأم ، يلاحظان ، وقد لاحظنا منذ شبّ الصفات الفسيولوجية و العقلية التي يهدف التعليم المقعم بالتربية إلى تنظيمها و توجيهها .

ينحي أدلر باللائمة على المجتمع ، حين استبدل المدرسة بالأسرة (*) ، وعدّها (غلطة جسيمة) عندما أصبح هذا الاستبدال استبدالاً تاماً . فتترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة و الانصراف إلى أمور معظمها توافه ، ويضيّعن أوقاتهن فيما لا طائل من ورائه ، ولكنهن يضيّعن معه ما هو أعزّ وما ينطوي على أغلى الأمانى لهن والمستقبل المجتمع والمستقبل أبنائهن ، لو تدبرنا العواقب ملياً .

يجد القاريّ في تضاعيف هذا الكتاب آراء مبثوثة ، يؤكدها أدلر ، من ذلك مثلاً أنّ إهمال المؤسسات الاجتماعية للفردية يترتب عليها ضمور الراشدين . وهو يعلل ذلك أن الإنسان لا يتحمل ، دون أضرار ، تبعات الحياة الثقيلة ، و رتابة العمل ، وضغوط التفكير إلى ما لانهاية .

* الباء تدخل على المتروك ، في القرآن الكريم ﴿ استبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ﴾ .

ولعل أدلر يذكر ذلك وفي خاطره ما يسمى في علم النفس بـ (عتبة التحمل) Threshold التي تكوّن الحدود الفارقة بين الأفراد. إذ لا يتسنى لجميع الأفراد أن يكونوا على درجة واحدة من قوة تحمل أثقال الحياة بمسئولياتها الجسام .

نحن الآن في عصر ينادي فيه العلماء و المفكرون بضرورة أن يعيد الإنسان صياغة نفسه حتى يستطيع مواجهة ما سيأتي به القرن الحادي والعشرون . و أرى أن خير تعبير عن ذلك يعكسه لنا قول الكسيس كاريل، في كتابه : *الإنسان ذلك المجهول* * ، إذ يذكر :

(إن العلم الذي حوّل العالم المادي يمد الإنسان بالقوة على تحويل نفسه . قد كشف له عن بعض ميكانيكيات الحياة السرية . و أراه كيف يعدل حركته ، وكيف يصوغ جسمه ، و روحه في قوالب و نماذج ولدتها رغباته . فلأول مرة في التاريخ أصبحت الإنسانية ، بمساعدة العلم ، سيدة مصيرها) .

كل إنسان ينشد التفوق و يسعى جاهداً إلى بلوغه . لكن أساليب بني البشر إلى تحقيق هذا الهدف تختلف من فرد إلى آخر . و أسباب هذا الاختلاف ، إذا ما تحريناها ، نجدها كامنة في وراثته الإنسان و سوابق تربيته . فهناك من الناس من ينشأ مدلاً ، وقد أفسده التدليل ، فيظن أن الدنيا كلها ، إذن ، يجب أن تستجيب لنزواته .

وهناك من يشبّ وقد عانى من الحرمان ، فلما أشتد ساعده ، طفق يحاول الانتقام تعويضاً عن حرمانه .

* تعريب شفيق أسعد فريد ، مكتبة المعارف ، بيروت ١٩٨٠

وثمة من نشأ وهو وليد القسوة و العنت فلما آنس في ذاته القوة ،
يشرع برد القسوة و العنف إلى مصدره أو إلى من يرمز إليه : فيرده إلى
الاجتماع لأنه رمز سطوة الأبوين أحدهما أو كليهما .

ونجد هناك المعوق لأسباب ولادية أو عارضة . فينتهج أحد طريقين:
أما التعويض إلى الأحسن فيبنى تفوقه بما يغطي على العاهة بشكل
مشكور ، و أما أنه يتدع ما يحسبه هو أفضل إليه فيقوم بكل ما هو مبتذل
ومنكور .

وهناك من الأفراد من يقعون ضحايا التغيرير أو الإغراء ، أو
الإغواء ، أو التهديد ، فينحرفون انحرافات لا تضرّ بهم وحدهم ، و إنما
ينال شررها و ضرورها المجتمع . وهذا مكمّن الخطر . ذلك لأن عنف
الشباب و قلة درايتهم بعواقب السلوك الشاذ ، يكون ضرره أخطر ، قد
لا يتم تلافيه إلا بعد فوات الأوان .

يجدر أن تكون المعرفة أساس توجيه الإنسان . و أول واجب ينبغي
أن نأخذ به هو أن نجعل منه معرفة نافعة . وإذا ما توخى الإنسان ذلك ،
فإن عليه أن يعتمد إلى إعادة صياغة الإنسان في نهاية هذا القرن ، ليكون
الإنسان مهياً لمتطلبات القرن الحادي والعشرين . إن المعرفة الدقيقة بعلم
الإنسان يجب أن تنبثق من معرفة حقيقية بجسمه و روحه و تنشئته : أي
معرفة دقيقة بسيكولوجيته في الحياة ، و أعني بها حياته اليومية .

وصياغة الإنسان في عالم متجدد لا تستلزم إنشاء مؤسسات باهظة
التكاليف . و إنما المؤسسات والمعاهد الحالية تفي بالغرض في عالمنا العربي ،
ولكن ينبغي أن يعاد إليها شبابها . وهذا يتطلب تضافر جهود الجهات
الرسمية و الجهات المعنية بتعاون أبناء المجتمع كافة . ولعل للجامعات دور

الريادة في هذا المضمار .

- ٣ -

لكي ننقذ المجتمع من أي ضمور يمكن أن يتهدده في كيانه ، وفي أمنه و استقراره ، يجب إنقاذ الفرد من ذلك : إنقاذه من حالات الضمور العقلي و الأدبي و الفسيولوجي و النزوعي ، أي النزوع الذي قد يأخذ به إلى الشر و المروق . لا تتماهى العلوم الإنسانية فيما بينها : علم النفس ، و علم الاجتماع ، و علم الأخلاق ، و علم الاقتصاد ، و العلوم التربوية ، لا تتماهى في أن إنشاء أطرنا الاجتماعية المبنية على الأسس النفسية ، من شأنها أن تعزز من رصانة الوازع الخلقي في حياتنا العقلية و الروحية و المادية .

لا ينبغي لنا أن نغفل حقيقة تناسب في ثنايا حياتنا الاجتماعية اليومية و تعاشيها ، ولكننا في غمرة أعباء الحياة ننساها أو نكاد . تلك الحقيقة هي أن هناك للفرد بيئته النفسية الخاصة به ، كما أن هناك للإنسان بصفته الجماعية ، بيئته النفسية .

البيتان كثيراً ما تفرقان ، وقلما تتفقان . و المفروض أن يروض الفرد نفسه على أن تنسجم نوازع و نفسه مع المتطلبات الاجتماعية العامة لكي ينعم هو كفرد و ينعم المجتمع كله بحياة الأخلاق و الوئام . وهذا منحى لا أحسب يختلف عليه اثنان . أنه لضرورة يأتلف بشأنها المتخالفون ، و يتفق عليها المتخاصمون .

فالفرد إذا وقف وحيداً ، وحبّد لنفسه أن يكون هو مجتمعاً قائماً بذاته ، فلن يستطيع أن يقاوم طويلاً بيئته النفسية ، و المادية ، و العقلية ،

و الاقتصادية . و إذا هو حاول ذلك ، فلا يتمكن من الاستمرار إلى ما لا نهاية .

تؤثر العوامل التربوية و الأخلاقية و العقلية في كل فرد بطريقة مختلفة. فثمة أشخاص ضعفاء أو أقوياء ، شديداً الحساسية أو معدوماً، أنانيون أو عادلون ، أذكاء أو بلداء ، نشيطون أو متكاسلون الخ ، كل فئة من هؤلاء يتفاعلون بطريقتهم الخاصة مع كل عامل سيكولوجي في حياتهم التي إليها يهدفون . و كل الإجراءات الاجتماعية و الاقتصادية يجب أن تأخذ العوامل الملحق إليها تواء في الحسبان . فالإنسان يبلغ غموضه أقصى مداه في الجو السيكولوجي الذي يوفره قدر معتدل من الأمن الاقتصادي الذي لا يجعل الفرد إتكالياً ولا يجعله ناقماً . ولا مناص في هذه الأحوال من تهيئة الفرد ليشحذ إرادته و ليكون عوناً لنفسه و لمجتمعه ، بعيداً عن الأنانية و الإتكالية : فكلتا النزعتين سلاح فتاك ، يفتك بالفرد و بالمجتمع . ذلك لأن استعمال التأثيرات السيكولوجية بحكمة قد يفضي الى وقف فقدان كنوز عقلية و أدبية و إجتماعية قبل أن تغوص في لجة الانحلال الأخلاقي و التحلل الإجتماعي .

في كتابه هذا الذي نحن بصدد التقديم إليه ، وفي كتبه الأخرى ، ومنها مثلاً :

١- علم النفس الفردي : علماً و عملاً .

٢- فهم طبيعة الإنسان .

٣- فهم طبيعة الطفل .

٤- سيكولوجيتك في الحياة .

في كتبه هذه كلها يؤكد أدلر على أن كل فرد يجب أن تؤخذ في الحسبان خصائصه الشخصية ، وصفاته العقلية ، و قدراته

الفكرية . فهذا أمر طبيعي . إذ أن توافق الفرد مع محيطه الطبيعي والاجتماعي يتوقف تماماً على طبيعة العمل الذي يؤديه تبعاً لمؤهلاته العقلية و البدنية . في هذه الملاءمة بين القدرات العقلية و المناشط الحياتية ، يتحقق الرضى و يبدع الفرد .

كان الشاعر و الكاتب اليوناني الشهير سوفوقليس ، مؤلف مسرحيات (أوديب ملكاً) ، و(أوديب في كولونا) ، و(إليكترا) ، قد قال :
(كثيرة هي عجائب الدنيا ، و أعجبها هو الإنسان) .

قال سوفوقليس رأيه هذا في القرن الخامس قبل الميلاد . و كان ، ولا زال ، أعجب عجائب الدنيا ، هو الإنسان ، و سيبقى كذلك .

فالإنسان ، من وجهة نظر سيكولوجية ، لا يزال قارة مجهولة ، لم تكتشف كل أرجائها بعد ، رغم تقدم العلم و المعرفة . الإنسان يتحرك بعقل و إرادة و شعور و طموح و هدف . فهو المخلوق الوحيد الذي يفكر و يعي و يخطط . وهو الكائن الوحيد الذي يستقري الماضي ، و يتأمل الحاضر ، و يستشرق المستقبل .

و الإنسان المخلوق الوحيد الذي يفعل وهو يعرف ماذا يفعل أو ما هو فاعل ، أو ما يريد أن يفعل . فعل الإنسان يمثل الإنسان نفسه ، والفعل إلى فاعله ينسب . و كان مؤسس مدرسة تاريخ السيكولوجيا الفرنسية ، ي . ميرسون ، قد قال :

(بالنسبة لنا أن الفعل يفترض بشكل طبيعي تماماً الشخص الفاعل ، و الشخص يعني الفرد ، و الشخص الفاعل يقع بشكل ما خارج الفعل - وبه يلتصق - أن ميزة الفاعل هي ميزة هامة للفرد - و العكس بالعكس) .

في علم النفس الحديث ثمة ما يطلق عليه طوبوغرافية النفس ، و يراد بذلك محاولة تحديد أماكن حدوث العمليات النفسية في الجهاز النفسي . فهناك مثلاً ، النفس الشعورية Thymopsyche ، وهي طبقة من الشخصية تتجمع عندها الدوافع ، و الميول ، و الحاجات ، و الرغبات ، وهي طبقة تتوسط بين طبقة الوظائف العضوية الجبلية ، و طبقة المشاعر الراقية و الفكر و الإرادة .

و السؤال الذي يجدر أن يثار الآن هو : هل تمكنت المشاعر الراقية أن تزّم من نزوات بعض الأفراد إنّ لم نقل كثير من الأفراد ممن يرين الشر على ميولهم فيعمدون إلى التدمير و التخريب بدلاً من (التعاون) الذي يدعو إليه أدلر ويعده أساساً للسيكولوجية الفردية القويمة!

الحياة ثقيلة بوطأتها.. وهي تكون أثقل إذا ما وجد فيها من بني البشر من يزيدونها جفافاً على جفاف . نحن يجب أن نتفاعل لندراً شيئاً من أعباء الحياة . ولكن ما بال من يعيش بين ظهرائي المجتمع فلا يزيده إلا تخريباً . فنحن بغير التفاؤل و التفاعل و التضافر تهصرنا الحياة التي يشبهها الدكتور طه حسين :

(.. كأنها صحراء ، عريضة مقفرة ، محرقة الشمس غليظة الأرض ، مضطربة الريح ، كثيرة الرمال ، ندفع فيها دفعا لا قبل لنا بمقاومته ، فنلقى فيها الأهوال و الخطوب)

الإنسان مخلوق عجيب ، و أصفه ، و لكن بتردد كثير ، بأنه : كم سيكولوجي هائل ، ليس من اليسير تحديد أبعاد المسافات بين شطآنه .

إنّ غرور الإنسان لا يعدله شيء . فهو يظن بنفسه القدرة على تصريف حياته كما يحب و يهوى ، في حين تخضعه هذه الحياة لضروب من

العبث و ألوان من التحكم لا يكاد يعرف لها مصدراً ، أو يقدر لها غاية .

وكل ذلك له برهان ، و عليه يقام الدليل . و لعل أقرب البراهين على ذلك ، هو إقدام الإنسان في معظم الأحيان على العبث بالحياة ، فلا يدعها مستقرة . فلا تلبث أن تنكفيء عليه ، فإذا هي به ومصييره عابثة .

- ٤ -

يحاول الإنسان أحياناً إثبات ذاته من خلال سلوكياته التي يأتيها في تناقضاته في دروب حياته .

الإنسان يستبطن ذاته أحياناً ، لذا تراه يتصرف على وفق ما توحيه إليه نفسه من خير أو شر .

نوازع الإنسان و دوافعه فطرية و مكتسبة : هذه حقيقة علمية لا يتجادل فيها متجادلون . لكن للبيئة في ذلك أثراً لا ينكره منكرون .

لهذا يولي النفسانيون اهتماماً بالغاً بمراحل الطفولة و الشباب ، ولا يكفون عن التأكيد على أثر التنشئة الأولى في الكيفية التي يكون عليها الشخص في قوادم حياته .

لذلك نجد بعض المربين ، ومنهم ، مثلاً ، جان جاك روسو ، الفرنسي المعروف ، قد أراد (لأميل) تربية ترسالية يتصرف فيها في طفولته على هواه ، ووفق ما يرغب هو وما يرضاه . لكن روسو ما عثم أن أنكر على نفسه هذا التزلزل ، فصحيح موقفه في كتابه : "العقد الاجتماعي" . إذ تراجع عن فكرة السماح للفرد بإطلاق دوافعه كما يرغب وكما يرى. إذ

لو تهيأ له هذا الاتجاه المتسم باللامبالاة ، لما أروعى الإنسان عن إتيان أبشع المنكرات ، و ارتكاب أفظع الموبقات ؛ ولما بقي الإنسان إنساناً .

فالإنسان يستطيع حماية (الأنا) التي هي لحمه وسدى ونسيج شخصيته ، و إنقاذها من خلال عملية الاستدماج و الإندماج :
١- الاستدماج عن طريق تشرب روح المجتمع و أكبارها .
٢- و الإندماج بلحمة المجتمع ، ليدفع عن ذاته آفة الإغتراب النفسي الذي كثيراً ما يؤول إلى الإحباط المدمر تدميراً يضر بالذات وبالمجتمع .

(الأنا) التي يسعى الإنسان إلى تأكيدها في شخصيته ، أو تأكيد شخصيته من خلالها ، إنما هي الإحساس برابطة المعاناة السيكولوجية الفردية من خلال إضفاء أهمية خاصة في جوهرها للأحاسيس الذاتية .

إن شخصية الإنسان تقطن جسده البشري كله . وإن شخصيته هذه إنما تكشف عن ذاتها من خلال خلجات الروح ، إن خيراً فخير وإن شراً كانت فشر .

الأنا الإنسانية حقيقة سيكولوجية ، و روحية خاصة . وكل إنسان يحمل في نسيجه الجسدي و الروحي ، ويحوي في داخله إمكانيات متعددة . لهذا يستوجب الأمر الالتفات إلى كل فرد في المجتمع لتنمية هذه الإمكانيات ، ومن ثم توظيفها بما ينفع الفرد و المجتمع وفي هذا وقاية الفرد من أن تسوّل له نفسه ركوب متن الشطط بحق نفسه وبحق مجتمعه . كما أن في ذلك وقاية للمجتمع ، إذ أن بتحقيق الإنسجام بين المطلبين يتحقق (المجتمع السليم) ، على حد تعبير أريك فروم ، النفساني الأمريكي المعروف ، إذ جعل ذلك عنواناً لكتابه : المجتمع السليم أو

المجتمع المعافى The Sane Society .

ففي كتابه : سيكولوجيتك في الحياة ، اجتهد أدلر ، في جعل المرء أو حمل الفرد ، على أن يتملي حياته ، ويأنس فيها نفاذ البصيرة : أي (إمكان فهم المرء لنفسه فهماً جيداً) على حد تعبير أنطوني ستور ، في كتابه : فن العلاج النفسي The Art of Psychotherapy .

(إن الإنسان لن يصيبه التعب في البحث عن الخلود) ، كما قال الدكتور ألكسيس كاريل ، الطبيب المعروف ، و الحائز على جائزة نوبل في الطب .

لكن بحث الإنسان عن الخلود تتباين فيه الأساليب التي يتدبرها الإنسان هذا . وربما يكون ذلك بل ربما كان ذلك التباين من دواعي اختلاف سلوكيات البشر ، وهم يجرون لاهتين ، مبهوري الأنفاس خلف ذلك (الخلود) المنشود الذي قصده كاريل .

وبعد ، فأحسب إن علم النفس بمختلف فروعهِ ما فتيء ينقب ، ويمحص ، و يبحث ، لعله يستكشف جديداً يضيفه إلى رصيده اكتشافاته حتى الآن ، يسلط من خلال ما عساه أن يبلغه من جديد ، ضوءاً يهتدي به إلى واقع دواخل الإنسان .

ويصدق على ذلك أكثر قول أنطوني ستور ، حيث يذكر :
(.... لكل منا أفكار و أحلام يقظة ، ومشاعر هائلة ، وهي كالفراشات ، تختفي إن لم يتم إصطيادها فوراً ، ويصدق هذا حتى على الأفكار الجديدة التي يبحث عنها المرء ، ولذلك فإنه من غير المستغرب أن يكون الأمر كذلك ، أو بالأخص مع الأفكار غير

المستحبة ، عندما يجد أنه أقل لطفاً مما كان يعتقد *) .

وإنه لما يسعدني أن أعرب كتاب أدلر : سيكولوجيتك في الحياة :
كيف تحياها ! ، و آمل أن يجد قراء العربية ما فيه من نفع ومتعه ، كما
وجدتها .

ففي كتاب أدلر ، هذا يجد القاريء ما يلذ النفس و يثري العقل و
يرضيه . فقد أودع في مؤلفه هذا خلاصة تجاربه الحياتية التي تأتت إليه من
مصادر أبرزها : مخالطته الناس ، و أهمها من أركان عيادته النفسي التي
كان يؤمها أشتات من الناس ، من مختلف الأعمار و الأجناس .

د. عبده علي الجسماني
جامعة صنعاء

* ترجمة د. لطفي فطيم . ص ٢٧ .

الفصل الأول

نحن ومعنى الحياة

يعيش بنو البشر في أطر من المعاني meanings وحدودها . ذلك أننا لا نتلقى تجاربنا من مجرد الظروف المحضة العابرة في حياتنا ، بل أننا دائماً نجرّب الظروف على محك أهميتها للناس . وأكثر من هذا وذاك ، حتى أن خبرتنا من ناحية مصدرها تستمد مقوماتها من الأغراض الإنسانية ومقاصدها . (فالخشب) مثلاً لا يعني إلا (الخشب بحكم منفعته وعلاقته بحياة الإنسان) ، وكذلك (الحجر) فإنه يلبث معناه (الحجر ما دام عاملاً ذا نفع في حياة البشر) . وإذا ما حاول امرؤ ما أن يقفز من فوق المعاني و يتخطاها ، ومن ثم يكرس نفسه كلها للظروف وحدها وحسب ، فإنه يكون بذلك قد حكم على نفسه بسوء التقدير والعزلة : فهو بفعله هذا يحكم على ذاته بالإنعزال عن سواه . ويترتب على هذا أن تكون نشاطاته و أفعاله و سلوكياته لا جدوى منها سواء بالنسبة إليه ذاتياً أو بالنسبة إلى الآخرين من غيره . وبعبارة أدق ، تكون كل تصرفاته جوفاء لا معنى لها ولا دلالة . ولهذا ، فليس في وسع أي امرئ أن يتجاوز المعنى أو يتجاهله . فأننا دائماً نجرّب الواقع ^(١) Reality من خلال ما نصفه عليه من معنى ، فيكون ما يكون عليه ، لا لأنه قائم بذاته ، بل لأنه شيء موجود و قابل للتفسير و التبرير . فمن الطبيعي الافتراض ، إذن ، أن هذا

المعنى هو دائماً ، و إلى حد ما ، لا ينتهي عند حد ولا هو بمكتمل ، ولا هو في ذات الوقت صحيح تماماً . فدنيا المعاني ، بهذا ، تكون دنيا الأغاليط .

فلو سألنا إنساناً : (ما معنى الحياة ؟) ، فهو قد لا يستطيع الإجابة على هذا السؤال . ذلك لأن أغلب الناس لا يكلفون أنفسهم عناء الإجابة على أسئلة كهذه ، و لا يريدون أن يشغلوا أنفسهم في الرد على مثل هذه التساؤلات أو حتى صياغتها . لا جدال في أن هذا السؤال قديم كقدم البشرية في تاريخها السحيق ، غير أننا كثيراً ما نسمع الشباب ، والمسنين ، على حد سواء ، تنطلق حناجرهم بالسؤال الصارخ : (ما جدوى الحياة لنا ؟) ، (ما معنى الحياة إلينا ؟) . وبوسعنا القول ، في هذه الحال ، أنهم إنما يطلقون مثل هذه الصيحات عندما يعانون في حياتهم إخفاقاً و دحوراً . وبقدر ما تصفو الحياة لهم و تكون أشرعتهم منشورة رخاءً ، وما ثمة من صعاب تعترضهم ، فلا تكون هناك حاجة تدعوهم إلى أن يضحجوا بالشكوى على الشكل المذكور . إذ أن كل إنسان يثير سؤالاً ومن ثم يجيب عليه حسبما يترأى له من خلال ما يقوم به من أعمال يرتئيه . ولو أن كلاً منا أصمّ عن كلماته المنطوقة أذنيه ، ولاحظ أعماله فقط ، لوجدناه يتفرد بما (تعنيه له الحياة) ، لرأينا جميع أوضاعه ، واتجاهاته ، و حركاته ، و تعابيره ، و أخلاقياته ، و طموحاته ، و عاداته ، و سماته الشخصية ، تتساق و هذا المعنى المضمّر في وجدانه . فهو يسلك و كأنه متكيء على تفسير معين خاص به في هذه الحياة : يتصرف و كأنه نسيج وحده . فكأن للحياة ، من وجهة نظره ، معنيين : معنى ما ينفرد به وحده ، و معنى آخر ممنوح للحياة بأكملها .

هناك معان تضافى على الحياة بعدد ما هناك من كائنات بشرية^(٢) ، ولعل كل معنى ، كما ذكرنا من قبل ، ينطوي قليلاً أو كثيراً على خطأ

من نوع ما . فما من واحد يمتلك المعنى المطلق Absolute للحياة ، وباستطاعتنا القول بأن أي معنى يتم تداوله لا يمكن أن يكون مطلق الخطأ في تكوينه . وكل المعاني إنما هي متغيرات تنحصر بين هذين الطرفين المحددين . على أننا بمقدورنا أن نميز من بين هذه المتغيرات ، تلك التي تجيب على نحو أفضل وتلك التي لا تجيب إلا بشكل أخطئ ؛ فبعضها خطأها صغير ، وبعضها الآخر خطأها كبير . وبذلك يمكننا أن نتوصل إلى تلك المعاني التي تتضمن الدلالات الصحيحة و سواها مما تفتقر إلى مثل تلك الدلالات . وعن هذا السبيل نحصل على (معنى للحياة) ينهض على أساس علمي ، وهذا من شأنه أن يوفر إجراءً عاماً لمعان صائبة : معان تمكنا من مواجهة الواقع بقدر ما يهم النوع البشري و يؤثر فيه . وهنا يلزمنا أن نذكر ثانية أن لفظة (صائب) أو صحيح إنها صائبة بالنسبة للجنس البشري ، و أنها صائبة و صحيحة حسب أغراض الكائنات البشرية و أهدافها . وما ثم حقيقة غير هذه ؛ وإذا وجدت حقيقة أخرى سواها ، فقد لا يكون أمرها مما يعيننا ؛ إذ قد لا نعرفها أو لا ندركها ؛ وربما لا تكون ذات معنى أصلاً .

لكل فرد من بنى الإنسان التزامات ثلاثة رئيسية ، و أنه بهذه الالتزامات الثلاثة أو الروابط الأساسية يتوجب عليه الاهتمام . فهي تمثل له الواقع المعاش الذي يكتفه من كل جانب . و إن جميع ضروب المشكلات Problems التي تواجهه إنما هي تسير في هذا الاتجاه الخاص بهذه الالتزامات و الروابط . وعلى الإنسان دائماً أن يستجيب إلى هذه المشكلات بالإيجاب لأنها دائبة في استثارة أسئلة من داخله ؛ و إن ضروب الإجابات التي يبيدها هي التي تظهر لنا حقيقة مفهومه الفردي لمعنى الحياة و إدراكه لمتطلباتها منه . و أول هذه الالتزامات التي ينبغي أن نعيها هو أننا نحيا و نعيش على قشرة هذا الكوكب : الأرض ، و ليس لنا في حياتنا سواه نعيش فيه . وهذا يقتضينا أن نطبع ذواتنا لمقتضيات مكاننا هذا

حسبما هو متاح فيه من إمكانيات هيئت لنا . علينا أن نكيف أنفسنا و أن يكون غونا العقلي و الجسدي مسائراً للمستلزمات السليمة لنضمن صيرورة العيش القويم حاضراً ومستقبلاً لنا و للجنس البشري قاطبة . وهذه ، لا شك ، إحدى المشكلات التي تبده كل إنسان لأن يجد لها جواباً؛ فما من فرد يقدر إن يشيح بوجهه عنها أو يتجاهلها . و أن أي سلوك نقوم به إنما يمثل حقيقة جوابنا لموقفنا وموقف الحياة الإنسانية كلها . ففي الأمر واقع من التحدي . فتصرفاتنا تكشف عما نعتقد انه ضروري ، وعما نحسبه مناسباً ، وما نظنه ممكناً ، وما نحاله مرغوباً . وهذا يؤول بنا إلى أن علينا أن نتكيف لحقيقة لا ينبغي لنا أن نغفلها إلا وهي أننا جزء من بني البشر الذين هم منا و نحن منهم ، فهم و نحن في الإنسانية سواء وكلنا نقطن وجه هذه الأرض .

ونحن إذا ما أولينا إهتماماً ، كما ينبغي ، بما علينا نحن جميعاً مما يتهددنا من مخاطر : منها - أمراض و آفات و كوارث - فإننا نجد أنفسنا وقد توحدت جهودنا من أجل العمل لخير النوع الإنساني كله و لصالحه العام ؛ فتكون نظرتنا أبعد و أعمالنا أصمد . فيكون موقفنا في هذه الحالة أشبه ما يكون بموقف من يجد نفسه حيال مسألة رياضية يقده زناد فكره ليجد لها حلاً . إذ لا يجوز بحال من الأحوال أن يكون عملنا اعتباطياً بل يجدر أن يكون كل عمل نقوم به محسوباً ، ومتماسكاً بعيداً عن الخدس و الظن و التخمين العشوائي ، مسخرين للحل السليم كل ما في حوزتنا من طاقات . وليكن في خلدنا و نصب أعيننا مع ذلك ، أن نجتهد بما أوتينا من قدرات أن نؤمن الجواب الصحيح على وجه التقريب . علينا دائماً أن نسعى بكل قوانا لكي نعثر على الجواب السليم القابل للتطبيق والذي يجيب على حقيقة أننا جميعاً نشترك في العيش على سطح هذا الكوكب : الأرض ، بكل ما يجلبه لنا موقفنا فيها من منافع ، أو ما قد يسببه لنا من ما يجلبه لنا موقفنا فيها من منافع ، أو ما قد يسببه لنا من

مضار ليس لنا من دونها دافع .

وهنا نأتي إلى الالتزام الثاني من تلك الروابط القائمة بين بني الإنسان. فنحن لسنا وحدنا أعضاء في هذا الجنس البشري ، فهناك غيرنا كثيرون كائنون من حولنا ، وكلنا نعيش في رابطة وحدة إنسانية . وان على الفرد أن يتذكر دائماً أن عوامل الضعف الكامنة فيه تجعل من المتعذر عليه أن يحقق ما يرمي إليه من أهداف بمفرده و بمعزل عن سواه . و إن هو فكر في العيش منفرداً بعيداً عن غيره و حاول أن يحل ما يواجهه من مشكلات بنفسه دونما عون من غيره فعليه أن يتوقع بأن مآله إلى الهلاك . فلا هو يستطيع أن يواصل جهوده وحده لتحقيق أهدافه في حياته ، ولن يقدر على أن يقدم ما ينفع الناس بعد . فهو إذن مرتبط بغيره بروابط نابعة من ضعفه ، و من عجزه ، ومن محدودية قابلياته . و لهذا فإن أعظم خطوة يتخذها لصالحه و لصالح الآخرين من بني الإنسان هي التلاحم معهم والتلاؤم و إياهم . وهذا الترابط هو أسنى ما يجب التأكيد عليه و الإهتمام به . وإذا كنا ننشد البقاء فما علينا إلا أن نطوِّع انفعالاتنا لتتناغم مع أعظم توجهاتنا لحل مشكلاتنا بقصد بلوغ أهدافنا و تحقيق غاياتنا - وأقصد بذلك مواصلة حياتنا الشخصية ، و حياة بني جنسنا من البشر ، لنعيش و سوانا على سطح هذه الأرض متعاونين متكافلين .

و هناك الارتباط الثالث الذي يشدنا جميعاً في إطاره . ذلك هو أننا موجودون لنعيش بجنسين - ذكور و إناث - و إن المحافظة على الحياتين : الفردية منها و الجمعية يجب أن تعبر أقصى الاهتمام لهذه الحقيقة . فالمسألة المتعلقة بالحب و الزواج إلى هذا الرابط تنتمي . وما من أحد بوسعه التهرب من هذا الواقع الصراح . ويبقى هناك أن يتملى كل من الجنسين السبيل الذي يراه ملائماً له لبلوغ الحلول التي تيسر عليه ما ييدهه من مشكلات . فهذه الالتزامات الثلاثة أو الروابط الأساسية ، تجعلنا أمام ثلاث من

المسائل الأساسية أيضاً ، تلك هي : كيف نوفق إلى مهنة تمكننا من البقاء تحت وطأة القيود و الحدود المفروضة علينا من طبيعة الأرض التي عليها نعيش ؛ كيف نتوصل إلى موقع يسمح لنا بالتعاون مع أبناء جنسنا من البشر لكي يتم التعاون و تضافر الجهود لنجني ثمار هذا التعاون؛ ومن ثم كيف نكيف أنفسنا - سيكولوجيا - إلى حقيقة أننا بشر و أننا نتكون من جنسين - ذكور و إناث - ، و أنه علينا نحن الجنسين يتوقف أمر استمرار بقائنا و رفع مستوى حياتنا و توثيق عرى محبتنا .

علم النفس الفردي ^(٣) لم يواجه مشكلات تذكر في استبانة نوعية الحياة التي لا تنسلك تحت مظلة هذه العناصر الثلاثة - أعني بها المسائل : المهنية ، و الاجتماعية ، و الجنسية . ففي استجابة الفرد لهذه المشكلات الثلاثة يعكس دونما ريب أحاسيسه إزاء ما تعنيه إليه الحياة . هب أننا بصدد بحث حالة شخص لا يكون حب الحياة عنده مكتملاً ، و أنه لا يكثرث كثيراً في سبيل تقدمه المهني و الوظيفي ، و ان علاقاته بزملائه والمحيطين به لا تنم عن كبير اهتمام ، و انه منزو وقلما يقيم مع الآخرين صداقات ، أو انه يجد صعوبة في إقامة صداقات ، فماذا نستخلص من هذا كله ؟

فمن محدودية حياته ومن القيود التي ضربها طوقاً حول نفسه و حول مجمل حياته ، نستطيع أن نستخلص أنه يحس بأنه : كائن و أنه موجود حي لكنه شيء مشكل و خطير ، لا يقدم لفرص الحياة إلا قليلاً ، لكنه جم الإنكسارات . و ان مجال حياته الضيق وجل ما يصدر عنه من نشاطات يمكن أن تنحصر في أدنى حد يجمعه لسان حاله الذي أحسبه يقول فيه (الحياة تعني عندي - أن أحافظ على ذاتي من أي أذى طاريء و أن أتقوقع في حدود نفسي ، و أن أكون بمنأى عن كل شيء ، والجلوس

على التل أسلم) .

و لنفرض ، من الجهة الأخرى ، أننا يازاء شخص حبه للحياة فيّاض و حياته كلها تعاون و وئام ، متعددة الجوانب ، ونشاطاته في حياته العملية مثمرة جداً ، و أنه كثير الأصدقاء و علاقاته بزملائه واسعة وكلها إيجابيات .

فماذا يعكس ذلك لنا ؟ .

عن إنسان كهذا نقول مستخلصين من سيرته الحياتية ، انه إنسان يشعر بأن الحياة إنما هي حياة إبداع و إبتكار وهكذا ينبغي أن تكون مهمة المرء فيها ، وعلى الفرد أن يقدم فيها من الفرص الناجحة ، و أن لا يدع فيها مجالاً للإخفاقات التي إن توالى سيطرت عليه و حطمت أشرعة إبحاره ، فينهار أمامها أو تجرفه تياراتها الهائجة . فشخص متفائل من هذا النوع من الناس يشق طريقة في عباب الحياة و لسان حاله يحدثه : (الحياة عندي تعني - الاهتمام بمن حولي من الناس ، وان أندمج بكل من هم في محيطي ، و أسهم بكل ما أوتيت من قابليات في بناء صرح النوع الإنساني).

فهنا في المثالين الآنفين يتجلى طرفان وهما على طرفي نقيض من بعضهما : طرف تتجلى فيه المقاييس العامة للأحكام الخاطئة (لمعنى الحياة)، و طرف تتمثل فيه الأحكام الصائبة (لمعنى الحياة) . وهنا تارة أخرى يجدر أن نذكر أن جميع الفاشلين في الحياة ، و العُصاييين من الناس المرضى بهذا المرض ، و الذهانيين منهم ، و المجرمين ، و المدمنين ، و الأطفال المشكلين ، و المنتحرين ، و المنحرفين و المنحرفات - هؤلاء جميعاً يعدون فاشلين ، وهم ، في الغالب ، يفشلون حقاً ، لأنهم يفتقرون إلى حسن المزاولة وحسن الرفقة إزاء الآخرين و لأنهم يتنكرون لروح الحياة

الاجتماعية والاهتمام بها . فم ينظرون إلى الصداقات وإلى الروابط الاجتماعية وإلى تطوير مهن الحياة ، ينظرون إلى كل ذلك نظرة إحجام وتنكر ، فلا يقيمون وزناً إلى شيء اسمه : التعاون مع الغير . هدفهم في النجاح يتمثل بهدف خيالي من صنع أوهامهم الشخصية المبنية على الترفع والتعالي الأجوف ، وأن مآثرهم لا وجود لها إلا في أخيلتهم هم . وإن المعنى الذي يصفون به الحياة إنما هو معنى خاص بهم ومن خلقهم وحدهم ، ولا أحد سواهم ، ينتفع من خزعات سلوكهم ، وكل أهدافهم تبقى قاصرة عليهم دون غيرهم . والمعنى الخاص Private لا قيمة له في التواصل في الحياة . فهو يبقى ، في واقع الحال ، قابلاً في عقل صاحبه . فالمعنى لا يكتسب فعاليته إلا في حالة النفع به ، و الانتفاع منه بين سائر الناس . وكذلك يصدق الأمر على الأهداف والمقاصد والأعمال الأخرى ، إذ نتملى معناها ونراها بائنة في حال إنتفاع غيرنا بها . فنحن ندرك أن كل إنسان يسعى إلى أنه يكتسب أهمية ويحقق مكانة له في الحياة ؛ لكن أولئك الذين يحسبون إن مكانتهم يمكن أن تتحقق بمعزل عن غيرهم أو على حساب سواهم إنما يرتكبون أفدح الأخطاء . فهم لا شك مخطئون مالم يلتفتوا إلى حقيقة أن أهميتهم ومكانتهم إنما هي مرهونة بمقدار إسهامهم في اعتبارات حياة الآخرين من غيرهم .

ولنضرب مثلاً على قالة المعنى الخاص الغامض ، قصة تُحكى مؤداها أن امرأة تنزع طائفة دينية صغيرة ، دعت أتباعها ذات يوم إلى إجتماع عاجل ، وأخبرتهم أن نهاية العالم سيكون يوم الأربعاء القادم . فما كان من أتباعها أولئك إلا أن استبد بهم الذعر ؛ فعمدوا إلى بيع ممتلكاتهم ؛ وزهدوا بكل عرض في دنياهم ، واستسلموا انتظارا ، وترقباً ، وذعراً من داهية اليوم الموعود . غير أن يوم الأربعاء الموعود قد مرّ دونما حدث غريب . ويوم الخميس أرسلوا أحدهم ، وهم في أماكنهم قابعون يرتجفون ، أرسلوه ليستطلع لهم جلية الموقف ، قائلين له : (أذهب

و أنظر و تبين ما هي المحنة التي نحن فيها . فنحن قد أخبرنا بأن نهاية العالم واقعة يوم الأربعاء ، و أن التي أخبرتنا لها من علم الغيب ما لا نشك فيه غير أن يوم الأربعاء قد مضى وها هو العالم لا يزال مستمراً قائماً كما هو من حولنا) . فما كان منهم إلا أن ذهبوا إلى - نيتهم - تلك وألحفوا في استجلاء ما أنبأتهم به ، فما كان من تلك (النبية) إلا أن قالت لهم : (ولكن أربعائي الذي أعنيه هو غير أربعائكم أنتم) ! فهي ، إذن ، كان في عقلها معنى للإربعاء يختلف عن معناه لدى الآخرين : معنى خاص بها ! وهي إنما قالت ذلك لتتهرب فما كانت تتوقع أن تواجهه من تحدٍ سيأتيها من أتباعها الذين تضعضعت في نفوسهم مكانتها . لذا لا نرى للمعنى الغامض المبهم الخاص أدنى ثبات على محك الاختبار .

لذا ينبغي أن يكون العنصر الصحيح الكلي (المعاني الحياة) متصفاً بالسعة و الإحاطة و الشمول و الإشتغال معاً - يخلق بها أن تكون تلك المعاني التي بوسع الآخرين المشاركة في معانيها ، و أن تكون مما يتقبله الآخرون بيسر ورضى على أنها صادقة . و خير حل لمشكلات الحياة هو مما يسمح بفسحة لمكانة الآخرين ؛ وفي هذا السبيل وعن طريق مسالكه نستبين أن تلك المشكلات قد تمت مواجهتها على نحو يتمثل في النجاح . فبذلك تتوفر أركان التكافل و الصفاء ، لتحل محل المنابذة و الجفاء .

وبذلك نجد حتى معنى العبقريّة يجب أن يتم تحديد معناها ليس بأكثر من كونها موهبة نافعة ؛ لاشك في أنها يتجلى فيها السمو ، بيد أن سمو مكانتها يكمن في مقدار منفعتها : و انه فقط في حالة إسهام المرء في السعي لعون الآخرين نقول عنه بأنه عبقري فنصفه بهذه الصفة . فيكون المعنى المعبر عنه على هذه الشاكلة ، يكون دائماً موضع اعتبار ، و تكون سمته : (معنى الحياة - الإسهام في خير المجموع) لينعم المجتمع بالرخاء وقوة البناء . ونحن لا نتحدث هنا عن كوامن الدوافع ، ولا عن رواقد

النوايا و حسب ، وإنما نرمي أيضاً إلى أن نرى ظواهر الإنجازات وقد تحققت . وخير الناس من أردف بجهوده الذاتية ، جهود غيره بلوغاً لخير عميم . وعندئذ نتبين التلقائية التي تتبدى لنا معربة عن صدق نوازع صاحبها . وبهذا يتم تخطي ما قد ينشأ عن عوائق نحول دون الارتقاء النفسي و الإجتماعي و التغلب على صعاب الحياة أو تذليلها في الأقل .

ربما تكون هذه بالنسبة إلى كثير من الناس نقطة جديدة ، أو وجهة نظر تسمع لأول مرة ، و لعل بعضهم يشككون فيما إذا كان المعنى الذي نوليه للحياة لا يتمتع بأية نكهة طريفة تقدم شيئاً من الاهتمام لنزعة التكافل و التعاون في الحياة . وربما ، وهم في غمرة تساؤلهم هذا ، يثيرون سؤالاً محدداً مثل : (ولكن ماذا عن الفرد ؟) فإذا كان عليه دائماً أن يوفر جهوده لغيره ، ألا يمكن أن يؤول به ذلك إلى المعاناة الفردية أو الإخلال بفردانيته ؟ ألا يوجد من بيننا من يلزمهم الأمر أن يتعلموا بادئ ذي بدء ، كيف يلتفتون أو كيف يحترسون من أجل رعاية مصالحهم ، أو ترسيخ مقومات شخصياتهم ؟ لا مشاحة في ذلك كله ، ولكن يخلق بنا أن ندرك أن فردية الفرد و شخصية المرء إنما تتعززان في خضم معترك الحياة ، و إن جوهر الإنسان ليستصفى على محك إسهامه الفعال وعلى ضوء ما يضيفه على معنى الحياة من رونق . فتحقيق الأهداف الإيجابية المرتجاة إنما هو لصالح الفرد و المجتمع و الحياة .

وثمة الماعة أخرى منها نستدل على أن المشاركة الوجدانية و العملية المتضافرة ، هي التي تجدد المعنى الصحيح للحياة و تمنحها صائب مراميها . فلنتأمل ما حولنا و لننظر ملياً إلى ما يحيط بنا ، فماذا نرى ؟ ألا يكفي أن نبصر بأم أعيننا أن هذا التراث الإنساني الجم إنما هو وليد جهادهم المشترك ، وثمره إبداعهم المتكامل ؟ فهذا بحد ذاته يكون صُوى - علامات - باهرة على ما كان منهم من أعمال جبارة تمثلت في الفنون، و

الفلسفات ، و العلوم ، ومختلف صروح المعرفة ، كلها تنتصب شواهد على نتائج أعمال مشتركة تصب في مضمار واحد : هو توطيد رفاه البشر . وهذه الجوانب الإيجابية ، على النقيض منها تترأى مواقف أولئك الذين لم يتيحوا شيئاً للحياة يذكر سوى انحسار أفعالهم باتجاه دواخلهم الذاتية وحسب . فهم ، لذلك ، ليسوا فقط أمواتاً في الحياة و بعد الممات ، بل أن حياتهم كلها خطل ولا غناء فيها في أي ضرب يذكر من ضروب العمل . انهم أناس عاشوا أو ما فتئوا يعيشون على هذه الأرض ولكن الأرض كأنها تخاطبهم فتقول : (لست بحاجة إليكم . وما من أحد يكثرث لوجودكم البطال ، وما من جدوى فيكم ولا في أهدافكم . وليس لأحد حاجة بقيمكم التي تظهرون . فبعداً لكم وتعساً) . ما أعجب أمر الإنسان ! أنه ساذج و يسير ، و أنه وطيء وكبير ؛ وان شخصه لشديد التعقيد .

يوجد هناك دائماً أناس يدركون واقع هذه الحقيقة ؛ أناس يعرفون أن معنى الحياة يكمن في إبداء الاهتمام بما للآخرين من حق عليهم وبإنشاء علائق الحبة و الوئام في هذا الاتجاه . و أننا لنجد هذا أيضاً مما تدعو إليه جميع الديانات السماوية باعتباره منقبة إجتماعية و أخلاقية وإنسانية مثلى . و الإنسانية بكل توجهاتها و اتجاهاتها تصبو إلى هذا المنحى المرتجى .

وعلم النفسي الفردي ، هو الآخر ، بدوره يرمي إلى ذات الهدف ممطياً صهوة الأساليب العلمية المنتقاة ومتوفراً على استحداث (التكنيك) - التقنية العلمية الرصينة - و انه (علم النفس الفردي) ، باعتقادي ، يخطو بخطى وطيدة في هذا المضمار . و لعل العلم ، وهو ينهج منهج زيادة تطوير اهتمامات بني البشر بما يكفل الرخاء لأخوانهم من بني البشر ، سيمكن من تسريع تقريب الهدف المتوخى أفضل مما ينتهج في

الأساليب الأخرى التي قد تسودها النزعات العشوائية .

ما دام المعنى الذي تكتسي به الحياة وعليها يُضفى ، يعمل وكأنه الملك الحارس الموجه لجميع أعمالنا و أفعالنا ، فيكون من الواضح تماماً إذن ، بل و أنه لمن أهم الأمور ، أن ندرك كيف تتم صياغة هذه المعاني ، وكيف تختلف فيما بينها و الواحد منها عن الآخر ، و كيف يمكن تصحيحها ووضعها على محجة المسلك السليم إذا هي انحرفت عن مسارها القويم ، أوحينما تكاد تهوي في مهاوي الأخطاء القاتلة . وهذا لا غرو ، هو ميدان علم النفس و الحلبة التي يُجلى بها ، ففي هذا المجال تتجلى خصائص علم النفس على نحو أفضل مما يقوم به الفسيولوجي أو (البيولوجي) - علوم الحياة . فعلم النفس مؤهل لغرض التعمق في أبعاد أغوار النفس البشرية من حيث التكوين النفسي للإنسان و دوافعها ونوازعها و ميولها و اتجاهاتها . فنحن نلاحظ الطفل منذ لحظة إطلاله على عالمه الجديد يطفق يتلمس طريقه وسط حشد متشابك من مكونات محيطه ومعانيها . وهو يخطو ببطء يلائم نموه يستطيع في حدود الخامسة من العمر ، أن يدرك بعض المفاهيم و المعاني المؤلمة لإدراكه لما يحقد به من معانٍ للحياة أكتسبها إبان خطوه صوب ما سيتعلمه من معانٍ أخرى في قابل أيامه . وهذا لن يتأتى ألا بعد أن يهيء لنفسه نظاماً يستخلصه من تجاربه في كيفية إدراك المعاني إدراكاً حسيّاً أول الأمر ، ومن ثم يعلله تعليلاً عقلياً يحكمه المنطق المكتسب . ما إن يتحصن الفرد بالمعرفة ضد ما قد يبدئه من أخطاء بالغة الخطورة حتى نراه سرعان ما يتصدى لها بالتصويب المرتقب . ونادرة هي تلك الظروف التي يبادر فيها الفرد تلقائياً إلى إصلاح ما وقع منه من أغلاط لها صلة بما أضفاه من قبل على معنى الحياة ، ومع التلقائية الذاتية هذه منه ، فكم هو سيفلح في هذا السبيل . و أياً كان الأمر ، فهو لن يقدم على تقويم سلوكيته لتنسجم مع الأعراف المرتضاة ، إلا إذا ألقى نفسه في مواجهة ضغط إجتماعي يلزمه بذلك

ويضطره إليه ؛ فإن هو ارعوى و إستجاب فقد أصاب ، وإن هو ركب رأسه فقد ضل و خاب . و الخير كل الخير يرتجى ممن يسمع الحق بأذن صحّاحه وليست مجّاجة ، و يعي بقلب إلى الهدى متحرّق غير متحرّق .

فلنا أن نمثل الآن بأمثلة بسيطة عما هناك من طرائق متباينة
يمكن أن تعلل على ضوئها مواقف الطفولة التي تؤثر في نظرة المرء المستقبلية للحياة ومعناها . إذ من المرجح أن ما يخلفه الفرد خلفه من ذكريات كالحات كان خبرها إبان طفولته ، تستلي ما يضادها من معان و تفسيرات . فرب امريء مرّ في طفولته بتجارب مريرة ، بيد أنه راح يستذكرها لا للنقمة ، وإنما يتسمتها منطلقاً لتصحيح أوضاع لا يرتضيها تنكره . فنجده يتحسس ونفسه تحدّثه : (يجب أن نزيل و نبعد تلك الأيام البائسة ، و لنؤمن لأطفالنا أفضل الظروف) . ولعلنا نلقى شخصاً ثانياً يقول : (عدل الحياة مبتسر . فبعض يظفرون بخيرها وخير ما فيها . وإذا كانت الدنيا تعاملني على هذه الشاكلة فلم يتوجب عليّ أن أعاملها بشكل أفضل ؟) ! و لعل بعض الآباء يحدثون أبناءهم بقولهم : (كنت قد قاسيت أيام طفولتي ما قاسيت . ولكني كل عقبة واجهتها تعديت . فلم لا تفعلون كما فعلت ؟) وربما نسمع رجلاً ثالثاً يقول كاشفاً عن حس دفين : (كل شيء يجب أن يغتفر لي لقاء ما قاسيت من طفولة تاعسة) .
ففي الأمثلة المضروبة هنا نتبين هذا الاختلاف بين الأشخاص الثلاثة ؛ وحسبهم في الخبرة هذا التفاوت بينهم . فكل منهم قد أفصح عن دفائن ماضيه . بيد أن كل واحد منهم أعرب عما عاناه على نحو جسّده معنى يختص به وحده . وهنا في هذه المفازة يشق علم النفس الفردي طريقه خلال النظرية الحتمية ^(٤) the theory of determinism . فما من خبرة قائمة بذاتها يمكن أن نعلها وحدها هي سبب النجاح أو الفشل . فنحن لا نعاني من صدمة shock خبراتنا وتجاربنا وهو ما يسمى : صدمة الولادة trauma ؛ وإنما نحن نجعل من تجاربنا ما يتواءم وأغراضنا .

إننا موجهون توجيهاً ذاتياً self - determined بشكل مقرر لنا بفعل تجاربنا وماضي خبراتنا وبحكم ما نسبغه عليها من معان حاضرة . ولعل الأمر لا يخلو دائماً من خطأ كائن هناك إذا ما نحن حسبنا خبرة بعينها هي أساس حياتنا المقبلة . إذ أن المعاني ليست مقررة تقريراً حتمياً بالمواقف ، بل نحن الذين نوجه أنفسنا ونقرر لها التصرف والسلوك بفعل ما نتبناه من معان نضيفها على مواقف الحياة .

غير أن ما سبق ذكره لا ينفي بحال أن مواقف معينة أيام بواكير الطفولة تترتب عليها فيما بعد أخطاء فادحة . ولا جدال في أنه لمن أولئك الأطفال الذين كابدوا مرّ الحياة ومواقفها ، تتأتى أجسام ضروب الإخفاق وأقصاها . ولنأخذ باديء ذي بدء ، وعلى سبيل المثال ، الأطفال من ذوي العاهات العضوية . فهؤلاء الأطفال ، من الصعوبة بمكان إقناعهم بأن معنى الحياة رائع . فهم يحسون في أعماق نفوسهم ما هو بادٍ لهم من عاهات يرونها في ذواتهم مثلبة تشعرهم بالنقص في قراراتهم وبالذونية عن سواهم . فهذه الأحاسيس تستقر في أبعد قاع من عقولهم ونفوسهم ما لم يقيّض لهم ممن حولهم من يؤتي من الحكمة والصبر لصرف حيس معاناتهم واجتذاب انتباههم شيئاً فشيئاً بعيداً عن التركيز على نواقص أبدانهم ، مما يضطرهم إلى اجترار سوء طالعهم . ورغم ذلك ، ومهما اجتهد المجتهدون ، فإن ذوي العاهات يواجهون ظروفاً يمكن أن تحملهم على أن ينكفئوا على أنفسهم ، ويفقدوا الأمل في النهوض بأي دور نافع في الحياة العامة ، ناظرين إلى ذواتهم من دواخلها معتبرين الدنيا لا تريد لهم إلا الإذلال Humiliated .

كنت ، كما أعتقد ، أول من وصف المصاعب التي تعترض الطفل المصاب بعاهات عضوية وتشوهات خلقية ، أو الطفل المبتلى بإفرازات غدية -نسبة إلى غدة - غير طبيعية . سار هذا الفرع من العلم إلى أمام

بخطوات فساح خارقة ، لكنه لم يسرْ على النحو الذي تمنّيته له أن يسير عليه ولا وفق الأسس التي إرتجيتها له . فمنذ الإبتداء كنت أسعى إلى تحري منهج يعين على التغلب على الصعائب وتذليل ما قد يعترض من مشكلات ، وما كان وكدي إمتهاد أرضية من اجل أن نطرح عليها مسؤولية الفشل الناشئ عن الوراثة والظروف الفيزيكية الجسمية والطبيعية .

إذ ما من نقص عضوي يضطر - صاحبة - إلى ، أو يتحتم نتيجة له خطأ في أسلوب الحياة ونظامها . فلا نجد ، مثلاً طفلين يتساويان في كل شيء ، أو يتأثران بنفس المستوى جراء ما يجري فيهما لخلل في غددهما . وما أكثر ما نرى أطفالاً يتخطون صعوبات كهذه ، بل انهم ، أكثر من ذلك ، يكشفون ، عن ملكات غير اعتيادية تمكنهم من الإتيان بكل ما هو نافع في الحياة . ومن هذه المثابة فإن علم النفس الفردي لا ينصب من نفسه داعية لنظم Schemes الاصطفاء الجيني Eugenic . فكثير من الرجال اللامعين ، الرجال الذين أسهموا في الحضارة بمخدمات جلّيّ ، هم أناس كانوا يعانون من نقائص بدنية وعاهات عضوية ؛ فكانت صحتهم في الغالب معتلة ، وكانوا أحياناً يموتون مبكرين وانه لمن اولئك الرجال الذين كانوا يكابدون عللاً ، وكانوا يكافحون للتغلب عليها وعلى ظروفها ، قد جاءت أسنى الإسهامات التي بددت إشعاعاتها حوالك الظلمات . إذ شدّ كفاحهم من عزائمهم وشحد إرادتهم فمضوا قدماً يقدّمون ويشيدون . فمن مجرد ملاحظة الجسم ، لا نستطيع الحكم ما إذا كان العقل سالمًا أم فاسدًا . ولذا نتبين أن أغلب الأطفال من ذوي العاهات والتشوهات والإضطرابات الغديّة ، لم يتلقوا القدر المقتضى من العناية والتدريب والتمرين للتغلب على معوقاتهم تلك ؛ ولهذا السبب بالذات نجد هذا العدد الهائل من أنواع الفشل متفشياً بين أولئك الأطفال الذين كانت أولى سني حياتهم الغضة مثقلة بفوادح الأعضاء المشوهة عندهم .

والنمط الثاني من أنماط المواقف التي ترهق كاهل معنى الحياة هو الطفل المدلل. فالطفل يشبّ وقد تعود أن تنفذ رغباته وكأنها اكتسبت صفة القانون. فهو يُمنح أهمية المكانة من غير إستحقاق ولا جدارة ، حتى يستقرّ في ذهنه أن له في هذا حقاً مكتسباً. فينهج هذا النهج الشعوري ، ولا يدري ماذا يريد ، ولكن لا يريد أن يعطي . ومَن أفرط في إدّخار جهوده لا يلبث حتى يُبتلى بالحمول . غير أنه ما أن يجد نفسه مهملًا وليس بمحط الأنظار ، وما أن تجبهه ظروف لم يدرب للثبات بوجه زخم أمواجه العاتية ، حتى يصحو فيلقى ذاته في لجة الضياع ؛ عند ذلك يدرك أن دنياه قد تخلت عنه وخذلت . ففي غمرة دلاله وتدليله يكون قد خسر قيمة إستقلاله الذاتي الذي لم يتعوده ، ولم يدرب أو يتدرب على كيفية الوقوف بنفسه على قدميه . فهو ، حينئذ ، يواجه العالم من حوله بعقل سادر ، وكأنه يقرأ معاني الحياة بلسان أَلْكَن. أما كيف يجب أن يواجه مخاطر مهام الحياة ، فإن عليه أن يتخلى عن سوابق نزعاته الموهومة، عندئذ ، وعندئذ فقط ، سيتحسن موقفه : أي بعد أن ينضو عنه رداء الكسل.

هؤلاء الأطفال المدللون هم أكثر الناس خطراً في المجتمع . فهم يتصرفون ، على وفق هواهم . ولعل تصرفاتهم تترأى لنا بصورة متباينة . فمنهم من يظهر الوداعة ، ومنهم من يتودد إلى الناس ليدو أنه محبوب وأنه مرغوب ؛ ومنهم من يبدي التمرد ويتشبث بالعناد ؛ ومن بينهم من يتلبب بعادات هجينة حينما يعتقد بأنه قد أسقط في يده . و المدللون بوجه عام يعدون المجتمع عدواً يناصبهم العداء ، لذلك فهم يقتنصون الفرص المواتيات للإنقضاض عليه بغية الانتقام . و أيما تصدٍ ينهجه المجتمع لحماية ذاته من شر عدوانهم ، يتذرعون بواهي الذرائع بأنهم هم شخصياً المستهدفون دون سواهم . لهذا فإن العقاب في الغالب لا يكون فعالاً في نفوس هؤلاء ، بل هم سرعان ما يتعللون بالقول القائل : (الكل يحكون

الجبائل ضدي) . و آيا كان النهج الذي ينهجه الطفل الفاسدة تنشئته ، فإنه في واقع الحال يقترف نفس الخطأ ، و يجترح ذات الغلط . فالواحد منهم يكون تصرف وقد إنتَفَخَ سَخْرُهُ - رثته - في مجاوزة القَدَرِ المحدد .

وثالثة الأثافي من تلك المواقف التي يمكن أن تتخذ فيها الأخطاء سبيلها ، هو الموقف الذي يجد فيه الطفل نفسه مهملاً وما من أحد يأبه به . فطفل كهذا ينشأ وهو لا يعرف معنى المحبة ولا يدرك ما معنى التعاون والتضافر : فهو لذلك يصوغ للحياة معنى لا يتضمن هذه القوى المحبة المؤثرة في سلوك المرء . و ينبغي ألا يغرب عن الذهن أنه عندما يواجه صعوبات في الحياة تذكر ، فسيضخمها أكثر مما تستحق ، و أنه في ذات الوقت يحط من قدر نفسه و يقلل العزيمة لأنه مهزوم من داخله أولاً ، ولأنه لا يعرف للتعاون مع غيره معنى . ذلك لأنه منذ البداية إنغرس في ثانيا ذاته صمود المجتمع عنه و بروده إزاءه ، لذا استقرّ في ذهنه أنه - المجتمع ، هو دائماً هكذا . فيغيب عن عقله أنه بوسعه أن يكسب العطف و التعاطف و الإحترام بما يمكنه أن يعطي من جهود مثمرة . فلا يعرف أن المكافأة واجبة في الطبيعة . فيشب مثل هذا الطفل وكله شك في كل ما ينساب من حواليه في مسارب الحياة . وفي هذا تكمن الحكمة من إيلاء الطفل حناناً مشفوعاً بتربية ، وهذا يمكن أن توفره له أم حصيفة أو من يقوم مقامها بروح إنسانية شفافة لطيفة ، إذ أن من شأن ذلك أن يجعل مشاعره مفعمة بصدق الثقة بالآخرين والإطمئنان إليهم . فمن حجر الأم تبدأ الثقة ومن ثم تتسع دوائرها شيئاً فشيئاً حتى تحتوي المحيط القريب من الطفل و البعيد في آفاقه . لكل واحد منا - نحن البشر - المقدرة على توطيد علائق الإهتمام بسوانا ، هذه حقيقة لا غبار عليها . بيد أن هذه القدرة تستوجب ، في الأسرة و المجتمع ، تدريباً و تهذيباً

لتتطور و تنمو كما ينبغي ، و إلا فإن تطورها سيتعثر و نتيجة صاحبها ، الإحباط و مآله التخبط و الإشتطاط .

إذا حصل أن وجدنا غمطاً من الأطفال من النوع الذي وصفنا لتونا: أي إذا كان قد أهمل ، أو عانى من كراهية ، أو واجه إغراضاً من ذويه ، فسينشأ وهو أعمى حسب المعنى المجازي نحو كل ما يعنيه التعاون أو الإنضمام إلى باحة أبناء مجتمعه . فيضرب على نفسه العزلة ، وهو جاهل بكل قواعد الإتصال السيكولوجي الذي من شأنه توثيق عرى الروابط الإنسانية . و أن من ينشأ على هذه السجية ، كما رأينا ، لا يكون مصيره إلا إلى الهلاك . فيسلك على غير هدى ، و يتصرف من دون بصيرة ولا رؤى . وأنه لمن المحزن حقاً أن نجد في عالمنا المتمدن كثيراً من حالات الإخفاق و الفشل ، ومصدر ذلك كله ، هم أولئك الأطفال اليتامى المهملون ، أو المشردون ، يضاف إليهم الأطفال المهملون أو المنبوذون . فهؤلاء كلهم ينشأون وهم لا يفقهون للتكاتف معنى ؛ فكيف نتوقع منهم أن يفهموا : (من لم يستظهر بالإخوان ، عضه ناب الزمان) - مثل عربي يؤدي المعنى الذي ذكره المؤلف - .

هذه المواقف الثلاثة - أعني بها : الأعضاء المشوهة الناجم عنها ألعاهات ، و التدليل ، و الإهمال - هي أعظم تحدٍ يواجهه ما يراد للحياة من معنى . و إن الأطفال المتمخضة عنهم مثل هذه المواقف يحتاجون دائماً تقريباً عوناً يسدى إليهم ليعيدوا النظر في موقفهم مما يعترضهم من مشكلات . فهم يجب أن يتلقوا مساعدة تأخذ بأيديهم إلى فهم أفضل لمعنى الحياة من حيث جوهره . وإذا نحن وجهنا اهتمامنا الصادق نحو هذه الفئة من الأطفال ، ووطننا النفس بهذا الاتجاه - فسنتمكن في المآل من أن نرى جوهر معانيهم بادياً في كل مكان وفي كل ما يفعلون . ونحن نعرف من التحليل النفسي بأن الأحلام Dreams و التداعيات

Associations يمكن أن تكون نافعة ولها في هذا المجال جدواها : و الشخصية هي ذاتها في حالي الحياة الحاملة و الحياة الواعية ، غير أنه في حالة الأحلام تقل المتطلبات والضغط الاجتماعية إلى أدنى حد و أن الشخصية عند ذاك تتكشف على حقيقتها عارية من أي تحيزات وتكتلمات . وبهذا وعن هذا الطريق يتأتى أرقى ما يمكن أن يسبغه الفرد على معنى الحياة ومنبع ذلك عنده هي الذكريات لديه . وكل ذاكرة ، مهما كانت فكرته عنها متدنية ومهما ظنها ساذجة ، تمثل بالنسبة إليه شيئاً يستحق التذكر memorable . فيكون يستحق التذكر لتأثيره على الحياة كما يصورها هو كما يرسم لها من صور في خلايا ذاكرته ، فكأنها تحاوره : (هذا ما يجب أن تتوقعه) ، أو : (هذا ما يجب عليك أن تتجنب) ، أو : (هذه هي الحياة !) . و المهم هنا ذكره هو ليست التجربة الذاتية مجردة عن كل تأثير و اعتبار ، و إنما الأهم من هذا كله هو ما تحفره التجربة في الذاكرة من أحداث و ما تتركه من آثار فتتبلر - مكونة بلورات - تقرأ في صفحاتها معاني الحياة . فكل ذاكرة هي تذكرة Memento ومذكرة * .

ذكريات الطفولة تستمد أهميتها من حقيقة بقائها في ذهن الطفل حية و استمرارها هكذا ولا سيما أنها تعكس فيما بعد منحى الطفل نحو الحياة بعد أن يتخطى عتبات الطفولة ، ومن سابق ذكرياته يستقي الطفل اتجاهاته المتبلورة إزاء الحياة ومعناها . ولسببين اثنين نتبين ما للذاكرة المبكرة من مكانة مهمة في دنيا الفرد . أول هذين السببين ، هو أن التقدير الأساسي الذي يكونه الفرد باديء ذي بدء عن نفسه وعن موقعه في عينه وفي أعين غيره إنما يكون متضمناً في بازغ ذكرياته ، ففيها رواقد إجمالي مظهره ، وفيها أول رمز Symbol كونه عن صورة ذاته ناقصاً كان أم تاماً ، وفيها تنوي أولى المطالب التي أمليت عليه . وثاني هذين السببين هو ، إن الذكريات المبكرة تمثل الانطلاقات الذاتية الأولى ، وهي في

الوقت عينه تعكس ما كونه لنفسه من سيرورة ذاتية أرادها لشخصيته .
لذلك فإننا في الغالب نجد في صفحات تلك الذكريات المبكرة منقوشة
ضروباً من التناقضات القائمة بين مواقف من الضعف وقلة الكفاية
(الكفاءة) التي يحسها في داخله ، وبين هدف من القوة يطلبه حثيثاً و أمان
يتوق إليه ويعتبره مطلبه الأمثل . ومن وجهة النظر السيكلوجية فالأمر
سيان : سواء عدّ المرء الذاكرة حدثاً و مهمته الأولى أم حسبها مخزن
الأحداث العابرات وما كان حقاً يتذكره ، يلبث الأمر المهم هو أن أولى
الذكريات هي المؤثرات في ما يتوخى الفرد من توجهات . فالذواكر (جمع
ذاكرة) إنما هي مهمة فقط لما تكون عليه ولما يمكن أن تؤلّ به ؛ على ضوء
ما يتم به تفسيرها و لتأثيرها على حاضر حياة - الفرد - ومستقبله . ففي
بواكير الذاكرة تقبع ناشبة خبرات منها ما يرمض ويوجع ، ومنها ما يحفز
و يولع .

فما أكثر الأمثلة التي توردها أدبيات علم النفس و التحليل النفسي
عن غرائب الذاكرة في بواكير خبراتها ! فهذه فتاة ، مثلاً ، تسرد في
سيرتها الذاتية Autobiography كيف اندلق فنجان القهوة الساخن
وهي لما تنزل بعد ، طفلة ، وكانت أنسيت الحادث لكنه عاودها لاشعورياً
فجعلها تنظر إلى العالم من حولها و كأنه لبيب يكاد يحرقها . فلا عجب إذا
ما رأيناها فيما بعد تعنف كل الناس و تلعنهم و تصب عليهم جام غضبها
لأنهم لم يولوها من الحيلة و الحماية ما يكفي للحيلولة دون احتراقها
بفنجان القهوة الساخن ذاك . وصورة أخرى تعرض لنا عن العالم وماذا
تعني الحياة كما تعكسها ذاكرة الطفولة الأولى : فهذا طالب جامعي
يذكر: (أتذكر أنني كنت قد سقطت من عربة صغيرة خاصة بالأطفال ،
يوم كنت في السنة الثالثة من عمري) . ومضت الحادثة وأصبحت
طي النسيان . لكنها ما لبثت أن راحت تعاود على صورة حلم يتكرر :
(رأيتني في عالم و كأنه على وشك نهايته ورأيت و كأنني أستيقظت

فشاهدت السماء لاحت حمراء ملتهبة ناراً . رأيت و كأثّ النجوم تساقط وكنا على وشك الإصطدام بكوكب آخر ولكني من شدة فزعي قبيل الاصطدام إستيقظت . فهذا الطالب ، وقد سئل عما إذا كان ثمة شيء يخيفه ، أجاب : (إني أخاف من أنني قد لا أحقق نجاحاً في الحياة) . ومن هذا يتضح جلياً أن ذاكرته الأولى وما أختزنته من ذكريات ، و أن حلمه المتكرر ذاك ، كلها كانت تتفاعل وتعمل على تثبيط همته والحد من عزيمته ، فتؤكد له وتدخل في روعه الخوف من الفشل وكوارثه . فيبقى في قرارة نفسه مرتعباً وكأنه يكاد يتخطفه الطير من شدة خوفه ! .

وهذا صبي في الثانية عشرة من العمر ، جيء به إلى العيادة النفسية بسبب التبول الليلي (Enuresis) - تدفق البول وسلسلة بشكل لا إرادي - وبسبب مشاكلاته المستمرة مع أمه ، و حين سئل عن أسباب ذلك كله ، ذكر عن أولى ذكرياته الطفولية يقول : (ظنت أُمِّي أنني ضللت طريقي وأُني ضعفت ، فراحَت تهرول في الأزقة وفي الشوارع تنادي عليّ وهي مذعورة . وكنت إبان ذاك محتبئاً في إحدى خزانات الملابس داخل الدار) . فماذا نستخلص من كلام الصبي هذا ؟ ففي ذاكرته هذه نقدر أن نقرأ التقدير الآتي : (المياه تعني - لكي أكون في مركز الإنتباه عليّ أن أكون مصدر إزعاج . و الطريق إلى ضمان الأمان ينبغي أن يكون عبر الواقعية و الخداع . أنا موضع عناية ، ولكن باستطاعتي تضليل الآخرين) . وكان بواله ، أيضاً ، وسيلة موجهة بعناية منه لتجعله في بؤرة القلق عليه والإنتباه له ، وإن والدته قد أكدت قوله الآتي بشأن فهمه لمعنى الحياة ، وذلك عن طريق إظهار قلقها عليه وعصبيتها نحوه . وعلى غرار ما ذكرنا من أمثلة سابقة ، فإن هذا الصبي كان قد كوّن مبكراً انطباعات اختزنها في ثنايا ذاته مفادها ، من وجهة نظره ، إن الحياة مملأى بالمخاطر ، فأنتهي إلى نتيجة من صنع عقله بأنه يكون في مأمن فقط عندما يجعل الآخرين وجلين عليه ، وقلقين بالنيابة

عنه. بهذه الطريقة وحسب ، قدّر أنه يستطيع أن يؤكد لذاته بأن الآخرين موجودون هناك لحمايته إذا هو أراد ومتى أراد .

وهذه أول ذاكرة لامرأة في عامها الخامس و الثلاثين من عمرها ، تقول : (أتذكر عندما كنت في السنة الثالثة من عمري هبطت سلم السرداب وخلال تلمسي درجات السلم في العتمة المظلمة لحق بي ابن عم لي وهو يكبرني في العمر قليلاً ، إذ فتح الباب و أسرع في أثري . شعرت في حينها أنني كنت جد خائفة بل ذعرت غاية الذعر) . بدا لي من دلائل هذه الذاكرة أن تلك المرأة لم تكن معتادة على اللعب مع غيرها من الأطفال وإنما كانت شديدة التوجس من أطفال الجنس الآخر . وقد حدثتُ عند مقابلتها بأنها كانت الطفلة الوحيدة لأسرتها ، أتضح لي أن حدسي كان صحيحاً وبرهنت على صدق ما ذهبت إليه ، وكانت لا تزال ، وهي في الخامسة و الثلاثين من عمرها ، لم تتزوج بعد .

ولعل أرقى ضروب التطور النفسي المتمثل في الإحساس الاجتماعي ينكشف لنا في المثال التالي : (أتذكر أن أمي سمحت لي أن أدفع أختي الوليدة في عربتها المخصصة للأطفال الرضع . وهذا مما جعلني أشارك في رعايتها) . هذا ما ذكرته فتاة صغيرة . ففي المثال نلاحظ علامات تبدى لنا وتفصح عن ذاتها لدى الفرد انه يرتاح كثيراً عندما يكون مع من هم أضعف منه ، و انه ، ربما ، يشعر بالراحة إزاء الأم لأنه لا يهتم إذا ما أظهر الاعتماد عليها . ولذلك يكون من الأفضل ، عند ولادة طفل جديد، أن يطلب عون أخوته الأكبر في الاهتمام به . لأن مثل هذا التصرف يشعر الأخ الأكبر أو الأخت الكبرى بأنه يعولّ عليه أو عليها ويحمله على الاعتقاد بأن مشاركته في المسؤولية معناها عدم التقليل من وضعه في الأسرة و انه موضع اعتبار من جانب الكبار .

غير أن الرغبة في صحبة الآخرين ليست دائماً دلالة على حسن الإهتمام بالناس المحيطين . فها هنا طفلة أجابت عندما سئلت عن أول ذكرى لها : (كنت ألعب مع أختي الكبرى و بنتين أخريين صديقتين) . فإننا ندرك بسهولة أننا بإزاء طفلة تعودت أن تكون إجتماعية ؛ لكننا سرعان ما ندرك حين نسمعها تقول : (لكن أخشى ما أخشاه حينما أترك وحيدة فأكون وحدي) . فترى هنا دلائل تشير إلى عدم التكيف لروح الاعتماد على النفس .

ما أن نرى المعنى المسبغ على الحياة وقد لمسناه وفهمناه ، حتى نظفر بمفتاح لفهم الشخصية كلها . يذكر أحياناً إن شخصية المرء لا تتغير ، غير أن هذا الموقف يتمسك به فقط أولئك الذين لم يضعوا أيديهم على المفتاح الصحيح للظرف الخدق بالشخصية . إذ ما من بحث ، كما سبق لنا أن رأينا ، يتأتى سليماً قوياً ولا يكتب له النجاح ، ما لم نتبين جذور الخطأ من أصلها ؛ وان الاحتمال السليم للتطوير إنما يكمن فقط في أصول أن نقول للفرد ، بعد أن نكون على حب الخير عودناه ، دونك ما جنيته فأحس وذق . ففي التدريب على حب التعاون و التحابب حصانة للفرد ضد الميول العصابية Neurotic . وانه لمن أسمى الأهميات تعويد الأطفال و تشجيعهم على أن يشقوا طريقهم بأنفسهم وان يندمجوا بأقرانهم ولداتهم ، و أن ينظموا ما يلائمهم من ألعاب وان ينجزوا ما يوكل إليهم من مهمات . فالتعويق للطفل ، تخويفه ، أو اعماله ، حزن له ومكمدة . وفي التدليل إضرار به وبحياته المقبلة ، وهو ، بعد ، مفسدة له أي مفسدة . وفي انتهاج السبيل الوسط في تنشئته تستقر المحمدة .

فلا ينبغي لنا أن نلوم الطفل على ما يبدو منه من نقص ومن سلوك لا نرضاه ، ونحن لم نكن قد عودناه كيف يجانب ما لا نرضيه منه ولا سبق لنا أن عودناه . كل شيء في هذه الحياة يقتضي تدريباً ، وكل مشكلة

تستدعي قدرة مناسبة لمواجهة حلها ، وكل مهمة تستلزم السيطرة عليها ضمن نطاق مجتمعنا الإنساني وبصورة تفضي إلى الرفع من شأن الصالح البشري ونفعنا العام المشترك . وانه فقط الفرد الواعي لا السامد ، هو الذي يفهم أن الحياة تعني تكافلاً وتضامناً ، وعندئذ يتمكن من أن يواجه مصاعبه بشجاعة وانه تتسنى له فرصة طيبة للنجاح . وان من لم يصلحه الطائي يصلحه الكاوي.

إذا ما لمح الآباء و المعلمون و النفسانيون ما ثمة من أخطاء ، وعرفوها ، و أدركوا أين مكمّن الأغلاط التي يمكن أن تنسب إلى معنى الحياة ، وإذا هم أنفسهم تحرزوا من الهوي في مهاوي تلك الأخطاء ، فإننا لعلّى يقين من أن الأطفال الناشئين ممن تنقصهم روح الإهتمام بالصالح الاجتماعي و يفتقرون إلى روح المبادرة النادرة سيأتي عليهم وقت تستتبت في مغارس نفوسهم أفضل مشاعر الإحساس و تستنهض فيه قابليتهم ليوظفوها في إرتقاء فرص الحياة . وحينما تواجههم مشكلات ، فإنهم لن يرضوا بطاقتهم ، ولن ينتظروا إلى من يأخذ بناصرتهم إلى أيسر السبل مخرجاً ، و أنهم لن يولوا الأدبار أو يلقوا بأعبائهم على عاتق غيرهم ، وأنهم لن يلتمسوا استلطافاً رقيقاً ليناً ، أو يتحروا استعطافاً خاصاً ، و انهم لن يستكينوا للذل ولن يحسوه ، وفي المآل فلا يلجأون إلى الانتقام ومقارفة الأذى ، و بالتالي لا يسألون ، ما جدوى الحياة وما نفعها ، وما عساي أن أنال منها أو ما سأحظى به فيها ؟) بل أنهم سيقولون ، (علينا أن نشق طريقنا عبر عبابها . أنه لأمر يهمننا وان هذا هو قدرنا وان فينا من القوة ولدينا من القدرة ما يمكننا من مواجهتها .إننا أسياد أنفسنا وان طاقاتنا قائمة فينا . فإن كان هناك جديد يستدعي التحديث والاستحداث ، وان كان ثمة ما يستلزم الاصلاح و الاستحداث ، فليس لذلك كله سوانا ، فنحن به أجدر و إننا عليه أقدر) . فإذا واجهنا - نحن بني البشر - متطلبات الحياة بمثل هذا العزم الوطيد ، فإننا ، لا محال ،

سنرفع رايات العلى باليمن ، بعد أن توخينا ترويض عصيها بعرق الجبين .

هوامش الفصل الأول

١- هناك فرق في هذا السياق بين الواقع Reality و الواقعية Realism . المعنى الأول يراد به أن الظواهر الخارجية هي ظواهر واقعية ندرکہا بالظواهر الذاتية : أي العقلية . فالواقع يكون موضوعياً ندرکہ خارج ذواتنا .

أما الواقعية فهي مذهب فلسفي يرى أن للمادة وجوداً حقيقياً مستقلاً عن الإدراك العقلي ، و أن العالم له وجوده الموضوعي المستقل .
(المترجم)

٢- أحسب أن أدلر يستخدم مفهوم الحياة بمعناه الواسع أو ما يطلق عليه في علم النفس (حيز الحياة النفسي) ، ويراد به الواقع السيكلولوجي المحيط بالفرد ، و يحتوي على كل الوقائع الممكنة القادرة على تحديد سلوك الفرد . ويمكن تمثيل الفرد بدائرة ، و تمثيل حيز الحياة بشكل بيضاوي يحيط بالدائرة و أكبر منها ، و الفراغ داخل الشكل البيضاوي بما فيه الدائرة ، هو حيز الحياة النفسي ، ومن بعد الشكل البيضاوي يوجد العالم المادي الكبير .
(المترجم)

٣- علم النفس الفردي بإسم الفريد أدلر يرتبط . فهو مؤسسة وزعيم مدرسة تسمى بهذا الإسم . لذلك فهو علم ينسلك في عداد مدارس علم النفس المعاصرة . له خصائصه و اهتماماته .
(المترجم)

٤- الحتمية : المذهب الذي يقول إنّ لكل نتيجة سبباً .
لذا يكون السلوك نتيجة لعوامل و أسباب عديدة كائنة أما في بيئة

الفرد ، أو في نفسه . لذلك تتشعب الحتمية شعباً شتى ، وتختلف بشأنها
المدارس النفسية و الفلسفية .

(المترجم)

الفصل الثاني

الفرد بين العقل والجسد

كان الجدل ولا يزال دائماً محتدماً حول ، أيهما يتحكم في الآخر: العقل أم الجسد . و الفلاسفة هم الآخرون إصطفوا في هذا النقاش المشتجر ، تارة آخذين بهذا الموقف ، وتارة أخرى متجانفين عن هذا الرأي ، ملتزمين سواه ؛ هكذا كان ديدنهم مثاليين Idealists كانوا أم ماديين Materialists ؛ و انتهى بهم الجدل إلى التشعيب و التكاثر ، والمسألة لم تنزل قائمة حولاء لم تعالج بعد . ولعل علم النفس الفردي ^(١) Individual Psychology بوسعه إسداء شيء من الحل لهذه المباحكات ؛ ذلك لأننا في مجال علم النفس تجهبنا حقاً مشكلة التفاعل المتبادل الحي بين العقل و الجسد . فأحدهما - العقل و الجسد - هو ما ينبغي هنا معالجته و الاهتمام به ، وأن أخفقت معالجتنا له وكانت المعالجة هذه مبنية على أسس متزعزعة فلن يكون في مقدورنا إنجاده ، ونظريتنا في هذا المضمار يجب أن تنطلق بالتحديد من مثابة الخبرة و التجربة ، ويجب أن تصمد بالتجديد إلى محك التطبيق . إذ إننا نحيا في معمعان الإحتكاك بين التفاعلات ، وهذا ما يجعلنا نواجه أقوى التحديات لأستبانة ما نلتمس من وجهة نظر صائبة و سليمة . وعندي أن علم النفس الفردي ببيانه وجدته يزيج كثيراً من انكماشات التوتر Tension عن غباشات هذه المشكلة .

فلا ينبغي لها أن تمكث حيث هي كما لو كانت مسألة (إِمّا
وإِمّا). وذلك أننا نرى أن كلاً من العقل و الجسم إنما هما إفصاح عن
الحياة ، فكل منهما يتجلى فيه تعبير عن الحياة وعنها يكشف وفيه تتمثل :
وكلاهما جزء من الحياة ككل غير مجزأة . و أننا لفهم علاقتهما المشتركة
في ذلك الكل . و إن حياة الإنسان إنما هي حياة كائن حي متحرك ، ولن
يكفيه شيئاً أن يتطور جسمه وحده أو ينمو . فحياة الإنسان تتباين كلياً
وحياة النبات . فالشجرة مثلاً حية وتنبض بالحياة ولكنها تخلو من العقل
الذي يتميز به الانسان . وانها ليست بقادرة على أن تغادر منبتها أو تختار
وجهتها التي تريد . فهي بخلاف الكائنات الحية المتحركة لا تمتلك عقلاً
وليس لها الروح على النحو الذي تفهم به عند الإنسان .

والكائنات الحية المتحركة حركة ذاتية ، بمقدورها أن تستبصر مع
تفاوت واضح ، و تستطيع أن تتحكم بوجهتها إلى جهتها التي تريد ،
وهذه الحقيقة تلزم بضرورة التنصيب على أنها مخلوقات تتمتع بعقول لها
و الأرواح . وقد أصاب شكسبير حيث قال :
" حاسة وحس ، حقاً ، لديك ،
وإلا فكيف تتحرك في مجالك " (٢) .

فهذا التوجيه الذاتي صوب الاتجاه المطلوب في التحرك و الحركة هو
الأساس و المبدأ المركزي الذي يعكس جوهر العقل . وما إن نقرّ بواقع
هذا الأصل حتى نغدو في موقع يؤهلنا لفهم كيف يتحكم العقل بالجسم -
بل وكيف يرسم خطاطة الهدف الموجه إلى حركة محددة . فلن يجدي
الكائن الحي فيلاً أن تكون حركاته عشوائية ، بل ينبغي أن يكون ثمة
هدف مرتجى يسعى إليه . وما دامت وظيفة العقل تتحدد بتقرر الغاية التي
تسدّد صوبها الحركة المقصودة ، فهذا من شأنه أن يمنح العقل صدارة
التحكم بموقع متمايز في الحياة . وفي ذات الوقت ، فإن الجسد يؤثر في

العقل ، وعلة ذلك أنه الجسد هو الذي يجب أن يتحرك . فالعقل باستطاعته أن يحرك الجسد فقط في نطاق الإمكانيات التي يمتلكها الجسد ، وفي الحدود التي تتوفر له - للجسد - لكي يصل مستواه فيها من التطور الذي أتاحه له لتجريب و المران . فلو أراد العقل مثلاً ، أن يحرك الجسد لينتقل إلى القمر ، فإنه سيخفق لا محالة ، ما لم يستكشف التقنية الملائمة التي تتيح للجسد و لنطاق محدودياته التحرك بشكل مناسب ليلبغ غايته المطلوبة منه .

أكثر الكائنات حركة هو الإنسان . وإن المقصود بالحركات هنا ليست حركة اليدين ، أو الحركات الإعتباطية ، بل المراد بذلك حركته الدائبة وقدرته على تغيير بعض معالم بيئته حتى . فهو أقدر من سائر الكائنات الأخرى على تطويع ملامح حياته . فحري بنا ، لذلك ، أن نتوقع أن قدرة الإنسان على النظرة التحسسية هي أرقى ما وهبَ هذا الإنسان : وهي موهبة العقل المتطور المستنير ، وهذا يتضمن مضموناً مؤداه أن في ذات الإنسان تكمن جذور البراهين المؤكدة لكفاحه الغرضي توخياً لمكانته المتكاملة مع كامل الإعتبارات للمكانة البشرية وموقعها الإرتقائي في الحياة .

وبوسعنا بعد البحث و التقصي ، أن نتبين ، فضلاً عن ذلك ، أنه تكمن هناك وراء كل حركة جزئية باتجاه أهداف جزئية ، حركة شاملة تنتظم جميع هذه الأجزاء ، فنتبين أن كل سلوكياتنا ترمي في توجهها إلى بلوغ موقع يتحقق فيه إحساس بالطمأنينة وقد ضمنها ، إحساس نستشعر فيه بأن مصاعب الحياة كافة قد تمكنا منها ، وإن نستشعر ذلك ونحن آمنون من كل ما هناك من مخاطر نخشاها ، نأمن من هذا كله وقد وقر في خواطرنّا بأننا نحن الفائزون . على أن نجتهد في هذا الاتجاه وهذا الغرض Purpose في أذهاننا ، يجب أن نخلد إلى أن كل خطواتنا وأفعالنا إنما هي

متناغمة و تنتظمها روح التوحد لكي يتأتى السلوك منسجماً مع الهدف المشروع و المنشود : وأعني بذلك أن يكون العقل متوفراً لإستنتاج هذه الخطى الغرضية وكأنها تمثل هدفاً مثالياً غنائياً نهائياً . ولا يختلف الأمر شيئاً بالنسبة إلى الجسد في هذا السياق : إذ لا معدى له في هذه الحالة أن يكون نشاطه أيضاً منسقاً ومنسقاً متأتياً من انتظام وحدته الكلية الوظيفية . فهو - الجسد - يتطور ، كذلك ، باتجاه هدف مثالي جذوره كائنة قبلاً في مؤلفات بنيانه . فاذا ما جرح الجلد مثلاً فإن الجسد كله يتنادى ليستعيد وحدته الكلية كاملة ودرء ما قد يتهدد بنيته من خطر . بيد أن الجسد ، في هذه الحالة ، لا يقف وحده في خوض كفاحه هذا في الحياة ، ومن أجل الإعراب عما فيه من طاقات كامنات ، فالعقل هو الآخر كائن هناك في مضامير اهاب الجسد ، لذلك هو يهب لنجدة الجسد في استكمال سيرورة تطوره هذا . إن قيمة التمرينات للجسد و التدريب اللازم له ، و قيمة الصحة العامة ، كل هذه قد برهنت على مقدار قيمتها و أهميتها للجسد ككل ، فهذه كافة إمدادات مساعدة توفرت للجسد ، وقد أسهم العقل فيها ليتاح للجسد بلوغ الهدف النهائي وما كان يرمي إليه من موقع غائي.

فمنذ لحظة إطلالة الإنسان على هذا الكون حتى آخر نأمة من حياته على وجه هذا الكوكب ، يلبث هذا التشارك بين العقل و الجسد يتردد صداه فلا يخفت ولا تنفصم عراه . فهما لا يرحان يتعاونان إذ هما كل لا يتجزأ وأحدهما من الآخر لا يتبرأ : فهما إثنان في واحد كلي .^(٣) فمثل العقل كمثل المحرك Motor ، ساحباً معه كل ما في الجسم من قوى وطاقات يستكشفها قائمة فيه ، جاعلاً من ذلك علة قاصدة تمكن الجسد من بلوغ موقع يتبوأ فيه الأمان و يحقق فيه التفوق على كل ما يعترض طريقه من معوقات وصعوبات . ففي كل خطوة يخطوها الجسم ، وفي كل حركة يأتيها ، وفي كل تعبير يبديه أو عرض Symptom يظهر عليه ، نستطيع أن نلمح أثراً من آثار الغرض العقلي واضحة معالمه . فالإنسان

يتحرك جسده كله أو جزء منه . وقد تتحرك حاسة من حواسه إرادياً أو انعكاسياً . ولكن ما من حركة تصدر عنه إلا ومنحها العقل معناها ومغزاها . ولنا أن نرى في هذا السياق علم النفس ، أو علم العقل ، كما نطلق عليه ، لنرى بأي شيء حقاً يُعني في الواقع . أن ميدان علم النفس هو البحث عما تنطوي عليه جميع سلوكيات الفرد و تعابيره من معنى له دلالة ، و انه علم يسعى إلى العثور على المفتاح الذي يمكن الإنسان من الاهتداء إلى هدفه ، ويمكنه أيضاً من مقارنة هدفه مع أهداف غيره من أبناء جنسه .

فالإنسان وهو يسعى جاداً صوب تأمين هدفه في الطمأنينة ، فإن العقل لا يكف عن الاجتهاد في هذا السبيل ولكنه دائماً يكد نفسه من أجل أن يجعل هذا الهدف ملموساً . وغايته : (أن الطمأنينة تتوفر في هذا الممكن ، وأن بلوغها مؤمن عن طريق هذا الاتجاه) . ولكن هل سائحة الخطأ مستبعدة ؟ ما من أحد يتكفل بنفي احتمال حدوث الخطأ ، ولكن ينبغي التأكيد على أنه من غير وضع نصب العينين هدف محدد ، ومن غير إشتراع اتجاه مسدد ، فلن يكون ثمّة للإنسان حركة لها غاية . فيبدو المرء وكأنه خلق عبثاً . وهذا منافٍ تماماً لشرعة الحياة ومعناها . فهدف توفير الطمأنينة وتأمين الأمان غاية يطلبها حثيثاً كل إنسان ، لكن مكمن الخطأ يتمثل في التواء التوجه الذي كان يمكن أن يفضي إلى حيث الأمان نتيجة لاختلال الخطى التي ضلت الطريق .

وإذا ما لاحظنا عرضاً سلوكياً ضالاً ، فما علينا إلا أن نحلل خطواته ضمن إطار الحركات التي آلت إليه . وهذا يصدق على أي سلوك يظهر في تصرف الفرد نراه منافعاً للروح الاجتماعية ، ومخالفاً للأعراف الأخلاقية . وان نقنع مرتكب الخطأ بأنه قد ضل السبيل وجانف جادة الحق ، وان نحمله على العودة إلى الصف الاجتماعي القويم ، وهذا حري

بالتحقيق ، لأن الغاية ينبغي أن تكون إصلاح الجميع وهي غاية الجميع في المجتمع السليم المعافى .

إن ما استخدمه الجنس البشري من تطوير في بيئته نطلق عليه تعبير: حضارتنا ؛ وحضارتنا هذه إنما هي نتيجة عما تمخضت عنه عقول البشر ، عقول أطلقت طاقات الأجساد . وما أعمالنا إلا ما إنقذت عنه عقولنا . وإن ما بلغته أجسادنا من تطور إنما تم بفضل توجيه و إعلاء ارتقائه من جانب العقل . فلعقولنا الفضل في كل ما بلغناه من نماء وتطور . وإذا كان يتعين علينا أن نتغلب على ما عساه أن يبرز أمامنا من عقبات ، فلا بد لأبداننا في هذه الحالة نفسها للمواءمة من أجل أن تتحمل نصيبها من عبء المسؤولية الحياتية . فالعقل ، إذن ، منهمك في التحكم في الوسط البيئي لكي يجد الجسد متسعاً له يحمي فيه ذاته - الجسد محمي بفواعل العقل : الجسد محمي من الاعتلال ، والمرض والموت الناجم عن التلف أو الإتلاف ، ومن الأحداث ^(٤) ، ومن عوارض الخلل الوظيفي الذي يحدث للجسد في أية لحظة من لحظات حياته . وهذا هو الغرض الذي تهيؤه لنا قابلياتنا لنستشعر اللذة Pleasure والألم ^(٥) Pain ، ولإستحداث ضروب الخيال ، ولتمكيننا من اصطفاء مواقف الخير ، أو ربط هذه المواقف بعناصر الضرر . ونحن هنا نكون بصدد وسائل عقلية لها عمقها ولها دلالتها : أعني الأخيلة Phantasies ، والتعينات الذاتية ، أو التوحدات ، التقمصات Identifications ، وكلها أساليب عقلية استباقية تستحث الأحاسيس وتستثير المشاعر لكي تحفز هذه الأخيرة الجسم ليعبئ طاقته بغية العمل المناسب لمواجهة ما يطرأ من مواقف : ومن هنا تتأتى الإنجازات وتولد الإبداعات وبهذه الطريقة تكون أحاسيس الفرد قد انطوت على ما تسبغه على الحياة من معنى له رونقه وصفائه ، أو قد لا يكون كذلك بل يكشف عن بلاهة وتفاهة . ومن هذه المثابة تباين ما هناك من أهداف يختطها لأنفسهم الأفراد ، وبتفاوت الأهداف

هذه تختلف أنماط الحياة : وفي هذا يستبان مقدار حظوظ الأفراد في مدى جدوى عطائهم الطيب لهم ولغيرهم .

فلا أسلوب الحياة وحدها تتحكم بالفرد ، ولا اتجاهاته بمفردها هي التي تخلق الأعراض المرضية عنده . والجديد في نظرنا إلى علم النفس الفردي ، وكيفية إستبصاره في أعماق الذات الفردية ، هو إن أحاسيس المرء ليست في تناقض أو صراع مع ما يخطه لنفسه من نهج وأسلوب حياة يرتضيه فيها . وحيثما وجد الهدف وكان ، فإن الأحاسيس والمشاعر تكيف نفسها من أجل الظفر به . وهذا من شأنه أن يبعثنا في هذه الحالة عن حوزة علوم الفلسفة من حيث هي وظائف الأعضاء ، وعن علوم الحياة Biology ؛ ذلك لأن الأحاسيس حينما تطفح و تطفو فلا يمكن أبداً تفسيرها ، وهي تـمـور ، بمصطلحات نظرية وكيمائية ، وليس في المستطاع الإنباء عن فورانها بمجرد الفحص الكيماوي . وفي علم النفس الفردي ، خـلـيـق بنا أن نضع مسبقاً في اعتبارنا العمليات الفسيولوجية ، ولكن الأحوط لنا أن يكون علي الهدف السيكولوجي تركيزنا . فلا يجدر بنا أن يكون جُل اهتمامنا منصبا على استحواذ القلق وتأثيره على أعصاب الجهازين السمبثاوي Sympathetic والباراسمبثاوي Parasympathetic ^(٦) ، بل حري بنا أن نتحرى غرض القلق وغايته . وفي إطار من هذا المفهوم ، فلا يمكن النظر إلى القلق بأنه ينشأ ويطل برأسه من ثنايا الكبح Suppression ^(٧) للدوافع الجنسية وقمعها ، أو اعتبارها من مخلفات خبرات الولادة ورواسبها الكاربة . إن من يذهب هذا المذهب يكون قد جانف جادة الصواب وأخطأ الهدف المنشود . فنحن نعرف أن الطفل الذي يتعود على أن يكون دائماً بصحبة أمه ، ويعتاد في كل حركة وخطوة على أن تهب لمساعدته وإن تقوم بحمايته ، يمكن أن يجد في القلق - مهما كان مصدره - سلاحاً ماضياً يستخدمه للسيطرة على أمه و التحكم بها وبعواطفها لإرضاء رغباته كما يشاء ويهوى . ولذلك فنحن

لسنا مقتنعين بالوصف الفيزيقي للغضب ، ذلك لأن الخبرة قد برهنت لنا على أن الغضب إنما هو وسيلة تراد في بابها ، و القصد منها الهيمنة على شخص ما أو موقف محدد . وبمقدورنا أن نحسبه من المسلّم به بأن كل تعبير بدني وعقلي يجب أن يكون مؤسساً على ركن مادي موروث ، ليس غير ، لكن انتباهنا في الغالب يكون موجهاً إلى الجانب المستفاد من هذا الركن المادي ، خلال سعي الفرد صوب تحقيق هدف محدد بعينه . وهذا ، كما أرى ، هو المنحى السيכולوجي الحقيقي الوحيد والصحيح .

فمشاعر الفرد و أحاسيسه تنحو بأزاء الجهة التي يراها ملائمة لاستنجاز هدفه . فترى ، مثلاً ، ان قلقه أو مدى شجاعته ، أو بشاشته ، أو ابتئاسه ، كلها تتواءم دائماً وما اعتاده من أسلوب خاص به في الحياة : وكل هاتيك السمات تتناسب من حيث قوتها وسطوتها مع ما يمكن أن نتوقعه منه تماماً . فمنهج الفرد الحياتي يصبح جزءاً من أسلوب له يرتضيه . وليكن معلوماً أن الإنسان الذي يتوخى تحقيق هدفه في التفوق عن طريق الحزن و الأسى ، لا يمكن أن يكون مرحاً ولا يكون راضياً في قرارة نفسه عما حققه من إنجازات ؛ وإنما هو يكون مغتبطاً وسعيداً فقط في حالة كونه تاعساً بائساً . وباستطاعتنا أن نلاحظ كذلك أن الأحاسيس تبزغ و تحتفي حسب الحاجة . فالمريض نفسياً الذي يعاني من رهاب الخلاء^(٨) Agoraphobia و المخاوف غير الطبيعية من الأماكن المفتوحة تزايله أمارات القلق عندما يكون بين جدران داره أو حينما يرى ذاته وقد سيطر على إنسان آخر وأخضعه لإرادته . هذا ، وان مرضى العصاب كافة لا يرون شيئاً طيباً في عيش الحياة ، ما لم يحسوا ويشعروا بأنهم هم الأقوى و انهم هم المسيطرون .

و الشحنة الإنفعالية هي الأخرى تمكث ثابتة شأنها شأن غمط الحياة وأسلوبها . فالجبان ، مثلاً ، يلبث حياته كلها جباناً حتى وان بدا عدوانياً

ومتغطرساً على الناس الأضعف منه ، حتى لو بدا شجاعاً عندما يجد نفسه محمياً بقوة الآخرين . فهو في قرارة نفسه مليء بالجن و الخور . لذلك فهو يُحكّم إقفال بابه بثلاثة أقفال ، ويحتمي ، فوق ذلك بكلاب بوليسية ، و يضيف إليها مصائد المغفلين ورغم هذا كله فإنه يصصر على أنه شجاع مقدام . وما من أحد بوسعه البرهنة على عمق قلقه ؛ لكن أغوار الجن الدفين بين أضالعه و السائد في طبيعته تلوح في مخائله ومن خلال عنائه البادي في مقدار تحوطه المبالغ فيه لحماية نفسه .

ففي كل مسرب من مسارب الحياة نجد دائماً أناساً اختلت عندهم وظائف نفسية أو عضوية . ومجال بحثنا هنا هو الجوانب النفسية ووظائفها الحياتية . وهكذا تكون عادة مصحوبة بفتور في الإحساس الإجتماعي ، وتخاذل في الشجاعة ، وسلوك يصطبغ بالنزعة التشاؤمية .

وأنا لنجد أحاسيس الشعور بالذنب Guilt تبقى تلاحق صاحبها حيثما حل لأنها تعوي كالذئاب في كهوف نفسه . فهذا أحد مرضاي ، وهو الطفل الثاني في الأسرة ، نشأ وهو يقاسي أقسى مشاعر الإحساس بالذنب يلزمه فلا يبارحه . كان أبوه و أخوه الأكبر يؤكدان عليه يومئذ على ضرورة مناقب الأمانة و الإلتصاق بها . وعندما بلغ الصبي السنة السابعة من عمره ذهب إلى معلمه ليسلمه واجبا بيتياً مطلوباً منه و أخبره بأنه من إنجازهِ ، و الواقع كان أخوه هو الذي أعده له . أخفى الصبي أحاسيس ذنبه فترة ثلاثة أعوام . وأخيراً لم يستطع تحمل إغوال الذنب في داخله ، فذهب إلى المعلم وافرغ ما في صدره معترفاً له بكذبتهِ الصلعاء الشنعاء . فما كان من معلمه إلا أن ضحك واكتفى . لكن الصبي لم يقف به الأمر هناك ، بل قصد أباه وأقرّ له بما في صدره وثناياه . وفي هذه المرة قد أفلح الصبي هذا . كيف؟ ذلك أن الأب أظهر بالغ فخره بإبنه الصادق الصريح ، وأبدى إعجابه به لحبه قول الحقيقة ، بل أن الأب امتدحه

وطمأنه. ولكن رغم أن الأب قد هوّن عليه خطيئته ، فإن الصبي استمر مكتئباً . فما دلالة ذلك ؟ انه لمن العسير مجانبية الحقيقة الآتية : وهي أن الصبي ذلك كان طوال فترة معاناته تلك يضمّر في طوايا ذاته رغبة أكيدة يرمي من خلالها إلى تكامل في الذات على ضوء سماعه التوكيد الواعظ على الأمانة و الصدق و الشرف ، فأراد لذاته أن يكون متزمتاً في هذا الجانب الذي كان يخزّه بدبايس الإثم المرير جعل يلزمه ويضيق عليه الخناق في كل لحظة ، فكان يحس وكأنه يخنق من أرماض توجعه ، وكلها تنضح من مصدر واحد : وتلك هي هنة تافهة . وعلة تضخيم الأمر على الشكل الموصوف ، وتجسيمه أمام عين نفسه يعزى إلى أن جو البيت الذي كان يعيش فيه أدخل في روعه ، وحفز لديه دافع التفوق وإحراز قصب السبق في تأطير معنى الكرامة والتكامل . وفي هذا المنحى ألقى نفسه في موقع مناقض تماماً ، إذ جعل الصبي يشعر بالنقص حيال مجاراة أخيه في الواجب المدرسي وفي الجاذبية الاجتماعية ؛ وإزاء إحساسه بالنقص الراقد هذا حاول أن يجرب حظه في انتهاج سبيل ملتوٍ خاص به لبلوغ مبتغاه .

وفي لواحق حياته أخذ هذا الشاب يعاني معاناة حادة من جراء لوم الذات ^(٩) Self - Reproach . فراح يمارس جلد عميرة ، وانه لم يبرأ قط من مزاوله الغش في الامتحانات . وسار في طريق حياته يراكم علي نفسه مشكلات من هذا القبيل ، من ناحية ضميره الحساس كان مثقلاً بمشاعر الذنب أكثر مما كانت الحال بالنسبة لأخيه ، وبهذا كان يجد العذر مهيئاً لديه لتقبل جميع أصناف الفشل التي تجعله عاجزاً عن اللحاق به . لذلك فهو بعد إتمام دراسته الجامعية كان يأمل أن يشق سبيله في ميادين الأعمال التقنية ، غير أن انشغاله بإجترار كوامن مشاعره الإستحواذية التسلطية ، لم تدع له متسعاً ولا فضلة من الوقت يمارس فيه ما ينفعه . بيد أن قصة هذا الفتى هل انتهت ؟ ! .

لقد ساءت حالته إلى أقصى حد ، مما أضطر ذويه إلى إدخاله مصحة عقلية ، وهناك اعتبرت حالته عصية على الشفاء . وبعد لأي من الزمن أمضاه في المصحة ، تحسن وضعه الصحي بعض الشيء فغادرها ، مع الاحتفاظ لنفسه بحق العودة إليها إذا ما تدهورت صحته من جديد أو في حالة الإنتكاس . في هذه الأثناء غير مهنته ودرس تاريخ الفن . فدنا وقت الإمتحانات . فما كان منه إلا أن ذهب الى أحد دور العبادة . وهناك ألقي بنفسه أرضاً أمام جموع المصلين ، وهو ينتحب : (أنا أعظم الخطائين ذنبا من بين جميع البشر) . فهو بطريقته هذه إستطاع ، ثانية ، أن ينجح في اجتذاب الانتباه إلى تعذيب ضميره الحساس .

وماذا بعد ؟!

بعد فترة أخرى قضائها في المصحة ، عاد إلى بيته . وفي إحدى المرات خرج من غرفته عارياً وجلس بين أفراد الأسرة . كان رجلاً متناسق الجسم مكتمل البنيان . وقد أراد بمسلكه هذا أن يبرز أخاه وبياهي غيره ممن حوله من الناس الآخرين .

فما هو تعليل كل ذلك ؟

إنّ مشاعر الذنب عنده كانت من داخله وكأنها مهاميز تدفعه لكي يظهر أنه أكثر أمانة و أوفر استقامة ممن سواه من الآخرين ، وبهذه الوسيلة كلن ينافح جاهداً لتحقيق تفوق يتوق إليه . بيد أن منافحاته تلك كانت مصوبة تجاه جوانب جوفاء مما يبتغيه من الحياة . وان هروبه من الامتحانات ومن الأعمال و المهن الكسبية ، هو علامة على سريرة الجبن القابضة خلف إهابه ، كما أنه - هروبه - دلالة معالم الأحاسيس الفائرة في أغوار ذاته صارخة للتدليل على عجزه وتدني كفايته^(١) . وان مجمل وضعه العصابي هو وسيلة و أداة غرضية غايتها إستبعاد أي نشاط يخشاه لتلا بيان فيه إخفاقه و انكساره . ويصدق هذا الرأي نفسه على سائر

تصرفاته الأخرى حيث كان يلهث خلف تفوق يرتجيه بطرائق مهلهلة ، كإنبطاحه أرضاً أمام المصلين ، وظهوره عارياً بتلك الشاكلة المثيرة في غرفة الطعام . فأسلوبه في الحياة ، وما كان يقاسيه من تفكك كلها أملت عليه ذلك الذي حسبه مناسباً لكنه في حقيقة الأمر سلوك مستهجن .

ها إننا قد لاحظنا ، انه خلال السنوات الأربع أو الخمس الأولى من حياته يكون الفرد قد أمتهد أولى بواكير وحدة عقله وفي هذه السنوات الباكرة يكون قد أقام علاقات التوحد المدمك بين عقله وجسمه . فهو يأتي إلى هذه الحياة الدنيا حاملاً في تلافيف عقله وجسمه عناصره الوراثية ، ومن بيئته يتلقف انطباعاته ومن ثم يكتيفها ليتابع وفق ما تمكنه ملكاته . فما إن يشارف نهاية عامه الخامس من بدء ديبه على الأرض حتى تكون شخصيته قد تبلورت معالمها . فمن معنى يلصقه بالحياة ، ومن هدف يحسبه له مجدياً ، ومن نمط حياة إليه يتوجه ، ومقصد عنه يندس و يندش^(١٢) ، من إنفعالات عليها اعتاد ، ومن إستعدادات عاطفية عليها إرتاض ، هذه كلها وأخرى سواها تكون قد اكتسبت خصائصها في هاتيك الأعوام الغضة ، وخلالها تكون قد تثبتت . هذه في النهاية يمكن أن تتغير ؛ غير أن تغيرها مرهون فقط بمقدار تحرره مما كان قد إكتسبه إبان طفولته من معان خاطئة أضفاها على ما كان يحيط به من ملامح الحياة : أي قبل تبلر معالم شخصيته في أوائلها . فتكيفه مع ظروف الحياة الرحبية يتوقف على مقدار استجابته المرنة لمتطلبات حياته الأخلاقية و النفسية و الاجتماعية المتجددة.

ومن خلال حواسه يتأتى للإنسان أن يكون مع بيئته في تماس وعلى طبيعة ما يتلقاه منها من إنطباعات تعتمد علائقه على كل ما في الحياة . وعن طريق ما أكتسبه منها من عوائد^(١٣) وما ألفه فيها من أوضاع جسميه ، وما تعودته فيها من حركات و إشارات ، نستطيع أن نحكم على

بعض عاداته السلوكية .

ويمكننا أن نضيف إلى سابق تعريفنا علم النفس ، أن نعرفه الآن بأنه علم يتيح لنا فهم اتجاهات الفرد التي يكونها نحو ما سبق له أن تلقاه من انطباعات تخص مكونات جسمه وتتعلق بمعطيات الحياة . وهذا من شأنه أن يلقي ضوءاً كشافاً على قائم العلاقة بين العقل و الجسم ، وإلى أي حد يكون الجسم مؤهلاً للتكيف مع محيطه الذي يحتويه . ذلك لأن الشخص المبتلى بعاهاات و تشوهات يلعن البيئة و يتنصل من الحياة . ولذلك فإنه ليصعب على العقل في مثل هذه الحالات أن يخضع الجسد تماماً لكي يتكيف كما يراد . لذا يصبح الجسد عبئاً على العقل الذي يتعب في ترويض الجسد : وقد يفلح فينجح ، وربما يتخلى عن مهمته فيشطح . وهذا من أسباب أخرى كثيرة تؤول إلى متاعب نفسية وانحرافات سلوكية . ويترتب على هذا كله إنحسار مشاعر التواد الاجتماعي و إنكماش القدرة التي كان بوسعها بسط أفاق التواصل السيكولوجي . وفي هذا يكمن خسران فادح ما بعده خسران .

ومن انفعالات المرء وحركاته و تعابيره نخلص إلى ما يمكن أن نطلق عليه (نطق الجسم) ، أي أن الجسد يتكلم على طريقته الخاصة . فالفرد في انفعالاته ، الايجابية منها و السلبية ، تظهر تعابيره واضحة منظورة ؛ إذ قد يبدو هذا جلياً في وضعية جسمه ، وفي وقفته و مشيته ، في تعابير وجهه ، أو في ارتجاف ساقيه ، أو اختلاجات ركبتيه . كلها حركات جسمية متآزرّة أو متناثرة .

كل تلك الاستجابات تتوقف على ما هناك من أنماط مختلفة على أساسها يتباين الأفراد . فقد تجد فرداً في موقف من الخوف ، فيرتجف . فترى آخر في نفس الموقف وقد قفّ جلده و انتصب شعره . وغير هذا

وذاك ، ترى ثالثاً وقد توالى خفقات قلبه . وخلاف هؤلاء ، تلقى آخرين يتصبون عرقاً أو يكادون يختنقون . وعلى نقيض أولئك كلهم ، تسمع سواهم تتهدج أصواتهم حين يتكلمون ، فتسمع واحد منهم وكأنه بحّ صوته وأخشوشن ، أو تراه وقد تقلص جسمه و تكوّر . تلك هي بعض الأمارات وما تستتليه من عياف للطعام واحتباس في المثانة أو تدفق فيها بلا تحكم فيها ولا سيطرة عليها .

غير أن الأساليب التي يتأثر بها الجسم لم تستوف ، بعد ، حظها من البحث ، المستفيض . فالتوتر العقلي مثلاً يصيب أثره كلاً من الجهاز العصبي الإرادي و الجهاز العصبي الحيوي ^(١٤) Vegetative . فحيثما كان ثمة توتر ، كان هناك نشاط يتبعه في الجهاز الإرادي . فالشخص المتوتر قد تصدر عنه حركات لا يدري لماذا أتاها ، كأن يقرع المنضدة بكفه وهو لا يدري ، وقد يعض على إحدى شفثيه دون أن ينتبه ، أو تراه يعلك قلمه وهو سهوان ، أو تلحظه يحرك لفافة السيجارة بلسانه بين شفثيه وهو متوتر أو غضبان ، أو تلمح منه اختلاجات بادية ، وكلها تعبر عن نوابض جسمية تأتت ولا سيطرة للفرد عليها ، لكنها كلها تنم على توتر مكين .

فمن كل ذلك نستخلص ولا يعوزنا البرهان المعقول ، إن غط الحياة و الاستعداد الإنفعالي المرتبط بذلك النمط ، ليفرضان من التأثيرات التي ليس في طوق الجسد مقاومتها و إبعاد صولتها .

ومن الصعوبة بمكان أن ننكر اليوم الأثر الذي يتركه العقل Mind على الدماغ (المخ) Brain . العقل هو المجموع الكلي المنظم للعمليات النفسية المنطقية التي تمكن الفرد من التفاعل مع بيئته . وفيه تتمثل مجموع الخبرات الشعورية . وقد يكون العقل ، عند بعض النفسانيين كالتركيبيين

مثلاً ، هو الذات أو النفس ، وقد يكون الفكر أو الذكاء . يصفه بعضهم بأنه شيء . ويرى بعضهم أنه عمليات نشاطية وليس شيئاً . وأياً كان الأمر ، فالعقل ليس بناءً سكونياً أو شيئاً مادياً . وإنما هو وحدة دينامية ، من خصائصه الترابط في النشاطات ، و التابع في الإستجابات التكيفية ، و العقل يرتبط بالبدن برغم الفصل الذي تصطنعه اللغة بين الإثنين .

أما الدماغ (المخ) فهو كتلة من النسيج العصبي التي تملأ الجمجمة ، يتألف الدماغ من أجزاء شديدة التعقيد ، تبدأ في أسفلها ، من فوق الحبل الشوكي ، بما يسمى النخاع Medulla . ويضم النخاع الممرات الشوكية ومراكز تنظيم عدد من الوظائف كالتنفس و الدورة الدموية . ففي الدماغ تتم عمليات إستقبال النبضات الحسية الواردة من أعضاء الحس المختلفة ، وفي الدماغ تتم عمليات التآزر الحركي لأعضاء الجسم كافة .

وعلم الأمراض Pathology : أسبابها و أعراضها ، قد أوضح لنا أن هناك حالات فقد فيها أفراد قدرتهم على القراءة و الكتابة ، وكان ذلك بسبب عطب أصاب النصف الأيسر من الدماغ ، لكنهم ، رغم هذا ، تمكنوا من استعادة هذه القدرة عن طريق تدريب أجزاء أخرى من المخ عوضتهم عن ذلك . ويحصل أحياناً أن يصاب فرد ما بجلطة دماغية فلا يعود ممكناً إصلاح الجزء التالف من الدماغ ، ومع ذلك فإن أجزاء أخرى من الدماغ تعوض عن القسم الذي أصابه التلف ، فتستعيد وظيفة تلك الأعضاء ، وبذلك تكمل مرة أخرى مهمة ملكات المخ . هذه الحقيقة لها أهميتها الخاصة بها ذلك لأنها ترينا إمكانيات التطبيق التعليمي و التربوي لعلم النفس الفردي في مجالات الحياة . وذلك لأسباب عملية تطبيقية شتى . فمثلاً ، إذا كان بمقدور العقل أن يؤثر هذا التأثير كله على الدماغ ، وإذا كان الدماغ بدوره ليس بأكثر من أداة Tool يستخدمها العقل :

بل أن الدماغ كان ولا يزال لحد الآن أهم آلة و أميز أداة في متناول العقل ، إذا كان هذا كله متيسراً ، ففي وسعنا إذن ، و بإمكاننا أن نطور هذه الأداة وان ننميتها ونحسنها في هذا الاتجاه . فما من أحد يولد محكوماً أبداً بذلك المستوى و المعيار الواحد : إذ في الإمكان إيجاد سبل وطرائق من شأنها أن تجعل الدماغ أكثر ملاءمة لمتطلبات الحياة وأفضل مواءمة لمقتضياتها .

لكن عقلاً إحتجن^(١٥) هدفه ووجهه في غير وجهته المؤلففة حسب الأعراف المشروعة ، وأعني به العقل الذي لم يرد لقدرته التناصر و التعاون لوجه الخير ، فإن عقلاً كهذا هو عقل ضال ، وذلك لإحجامه عن ممارسة تدريب الدماغ على النماء بهذا الاتجاه . لهذا السبب بالذات نلقي أغلب الأطفال الذين شبوا عن الطوق ولم يسبق لهم أن تلقوا تدريباً وتمريناً لقبلياتهم وتنبيه ذكائهم ، ينشأون وهم يفتقرون إلى شيء كثير من نمو هذه المواهب عندهم ، كما نجد انهم تنقصهم روح التعاون والتآلف .

كثير من الباحثين و المؤلفين قد ذكروا ما هناك من علاقة دائمة بين ما تراءى للعيان من تعابير العقل وتلك التعابير التي يبيدها الجسم . وما من واحد منهم حاول أن يستكشف أو أن يربط بين هذين الجانبين المتلازمين . لكن كريتشمر Kretschmer ، مثلاً تمكن من تمييز أنماط يستطيع الفرد أن يسلك في نطاق إطارها نسبة كبيرة من البشر . فمن هذه الأنماط التي وصفها كريتشمر ، مثلاً ، النمط المكتنز ، وهم أفراد من ذوي الوجوه المستديرة ، و الأنوف القصيرة ، وعن هذا النمط تكلم شكسبير على لسان يوليوس قيصر^(١٦) :

عليّ أن يلتف حولي المكتنزون الأشداء من الرجال^(١٦) .
رجال من مدببي الرؤوس وعند ذاك أنام ليلى مطمئن البال .

وخلاف النمط المكتنز ، يميز كريتشمز نمطاً مناقضاً لذلك ، ويسميه النمط الفصامي ، وأفراد هذا النمط يعانون من تمخّس واضطرابات عقلية. وهؤلاء هم النمط الثاني الذين ذكرهم شكسبير على لسان يوليوس قيصر أيضاً :

بعداً لكاسيوس ونظراته الخبيثة البائنة ؛
إنه وافكاره مطوية ، فأمثاله من الرجال أشرس بطانة كائنة ^(١٧).

لاشك في أن جميع العمليات العقلية تعتمد على ما يجري في الدماغ من عمليات وما يقوم به من نشاط . وفي ذلك أنصع دليل على وطيد الصلة التي تربط بين الدماغ في حالة سلامته و العقل في كينونته واستنجاز مهمته وأداء وظيفته .

وأياً ما كانت الآراء ، ومهما اختلفت الاتجاهات بين المختصين في علم النفس ، فأنا ، من جهتنا ، في علم النفس الفردي ، نولي اعتبارنا لمبدأ الحياة Psyche و أعني به الختوى النفسي كاملاً متضمناً العقل ومنطوياً على العمليات الشعورية واللاشعورية ، ومحتوياً على النفس ، وبضمنها الروح وخوارقها . وفي هذا الإطار يُضمُّ العقل موحداً . وهذا يتيح لنا فسحة لأن نتحرى بالاستقصاء و الإختبار ما يضيفه الأفراد عادة من معنى ، يراه كل منهم ، على الحياة أو على أنفسهم هم ، أو على ما يلتمسونه من أهداف تخصهم . أو على وجهات يتوجهونها فيما إزاءه جادون ، أو المناحي التي بها يأخذون في مسعاهم نحو مرامي الحياة حسب اجتهداتهم وعلى وفق تصوراتهم . وأفضل مفتاح في أيدينا غملكه حتى الآن لفهم ما هناك من فروق - بين الأفراد - نفسية ، إنما يتمثل في إجتلاء درجة تلاقي الأيدي حبا للصالح العام ، وانعقاد الخناصر في سبيل اللوائم .

هوامش الفصل الثاني

١- الفرد أدلر، مؤلف هذا الكتاب، هو صاحب مدرسة علم الفردي .
(المترجم)

٢- هاملت ، الفصل الثالث ، المشهد الرابع .

٣- هذه الصيغة في الرأي لا تختلف كثيراً عن صيغة علماء النفس
الجشتطلت .
(المترجم)

٤- جمع حدث .
(المترجم)

٥- مبدأ اللذة و الألم عند أدلر يختلف تمام الاختلاف عنه عند فرويد،
وهذا كان من بين الأسباب الأخرى التي باعدت بينهما .

٦- الجهاز السمبثاوي والباراسمبثاوي ، ويسميان أيضاً الجهاز
الودي وفوق الودي على التوالي ، و السمبثاوي جزء من الجهاز
العصبي الذاتي ، ويتكون من السلسلة العقدية الواقعة خارج الحبل
الشوكي وفي موازاته .

(المترجم)

٧- الإشارة هنا إلى مناقضة رأي فرويد .

(المترجم)

٨- ويسمى الخوف (بضم الخاء) من الأماكن الواسعة كالميادين
والصحارى . فهو خوف كثيراً ما يكون مصحوباً بالذعر و الهلع .

(المترجم)

٩- لوم ذات يحدث للمرء عند الشعور بالاكتئاب ، وجراء تراكم الذنوب .
(المترجم)

١٠- التفكير الاجتزاري ، تفكير يستحوذ على صاحبه فيصرفه عن الانشغال بما يجديه ، فيبتعد مضطراً عن مزاولة أعمال تنفعه وتنفع مجتمعه .
(المترجم)

١١- كفاية وكفاءة بمعنى واحد ، لكن كفاية أفصح .
(المترجم)

١٢- نَدَسَ و نَدَشَ ، بمعنى واحد : أي بحث عن الشيء و تحرك .

١٣- عوائد وعادات : جمع عادة ، و الأولى على غير القياس .
(المترجم)

١٤- ويسمى أيضاً الجهاز العصبي المستقل .
(المترجم)

١٥- إحتجن الخبر و الأمر وحجبه بمعنى واحداً وأحتجن أبلغ دلالة .
(المترجم)

١٦- يوليوس قيصر ، الفصل الأول ، المشهد الثاني .

١٧- يوليوس قيصر ، الفصل الأول ، المشهد الثالث .

* اقتصر المؤلف هنا على ذكر نمطين إثنيين فقط من أنماط كريتشمر وأغفل نمطين آخرين : هما : النمط الرياضي ، و النمط النحيف .
(المترجم)

الفصل الثالث

الإنسان ومشاعر القصور و التفوق

إن (عقدة النقص) - أو القصور - The Inferiority Complex ، وهي من أهم اكتشافات علم النفس الفردي ^(١) ، قد ساد الآن استعمالها وشاع في العالم وشاع في العالم كافة تداولها . والمختصون بعلم النفس على اختلاف مشاربهم وفي جميع مدارسهم قد تبناوا هذا المصطلح و استعمالوه في ممارستهم المهنية . بيد أنني لست متأكداً من ، ولا أستطيع الجزم ، فيما إذا كانوا هم على وعي تام من معناه وانهم يفهمون مؤداه ، و أنهم يستخدمونه بالفعل على وجهه السليم . إذ لن ينفعنا شيئاً ، مثلاً ، حين نقول لمريض ما بأن مشكلته أنه يعاني من عقدة نقص ؛ وإن نحن فعلنا ذلك فلا نكون قد أسدينا له عوناً يذكر سوى أننا نكون قد أكدنا لديه مشاعر النقص و القصور من غير إرادته السبيل إلى كيفية التغلب عليها و التخلص منها . انه ليتعين علينا أن نعرف علة التهيّب المحدد الذي يعانيه في أسلوب حياته ؛ وان نشجعه وان نذكر له كيف موطن العلة الحقيقية التي تنقصه فيها الشجاعة وان نذكر له كيف ينهض من كبوته فيها . كل شخص عصابي Neurotic لديه عقد نقص . ولا يمكن في هذه الحالة تمييز الشخص العصابي عن سائر العصائيين الآخرين بمجرد القول انه يعاني من العصاب وان الآخرين من هذا العصاب بمنجاة .

وإنما هو يمكن تمييزه عنهم لإختلاف الموقف الذي يجد فيه نفسه غير قادر على متابعة الجانب النافع له ولغيره من الحياة ، فهو يمكن تمييزه عن سواء بما يكون قد ضربه حول ذاته من قيود أعاقته سيورته باتجاه النشاط المجدي و الفعاليات الفاعلة النافعة . ولن يجدي العصابي فتيلاً أو يجعله أكثر شجاعة إذا قلنا له : (إنك تعاني من عقدة نقص) ، فقولنا هذا ليس بأكثر من قولنا لشخص يشكو من صداع فنخبره إذ نذكر له : (أستطيع أن أخبرك بما تشكو . انك تشكو صداعاً . أنت عندك صداع) !

كثير من الناس العصابين سيجيبون بالنفي فيما لو سئلوا إذا كانوا يشعرون بالنقص والقصور ، بل أن جواب بعضهم يكون على العكس من ذلك وبلغة الجزم ؛ فكأن يقول لك الواحد منهم : (أنا متيقن بأنني متفوق و أفوق الناس الآخرين من حولي) . فلا حاجة بنا ، إذن ، أن نسأل : بل إننا بحاجة فقط إلى أن نرقب سلوك الفرد حسب . وهناك في هذه الحالة سنرى مقدار تلك الألاعيب التي يتبعها ليؤكد لذاته مدى أهميته في عين ذاته . فلو نظرنا إلى تصرف شخص يتصف بالغرسة والنزعة العدوانية ، مثلاً ، لاستطعنا أن نحسب يتصرف وكأنه في قرارة نفسه يقول : (الناس الآخرون يبدو انهم يتجاهلون وجودي . فيجب أن أريهم بأنني أنا هنا !) ولو لاحظنا شخصاً يتشدد وهو يتحدث ، فيمكننا حينئذ أن نحسب انه في أعماق نفسه يشعر : (كلماتي لا وزن لها ما لم أعتمد إلى توكيدها) ! فوراء كل واحد يسلك وكأنه فوق الآخرين ، بمقدورنا أن نتوقع لديه إحساساً بالنقص وشعوراً بالقصور ، يستنزف منه جهوداً مضنية لإخفائه و التغطية عليه . فالموقف هنا كحالة الشخص الذي يعتقد بأنه ضئيل الجسم قصير القامة فيعتمد إلى أن يمشي على رؤوس أصابع قدميه ليوهم نفسه بأنه أطول مما يظنه الناس . وإننا لنرى مثل هذا السلوك عياناً حينما يتبارى طفلان أيهما أطول من الآخر . فيمد الذي يحسب نفسه أقصر ، قامته ويجس أنفاسه ويلبث على هذه الحالة فترة

موهماً نفسه أنه يكون بذلك قد بلغ مرامه وانه بسلوكه هذا أكبر من مقامه . فإذا سألنا طفلاً كهذا : (هل تعتقد أنك أصغر وأقصر مما أنت؟) ، فمن المتعذر أن نتوقع منه الإعتراف بهذه الحقيقة .

فلا ينتظر ، إذن ، من فرد تتبطنه مشاعر و أحاسيس من عقد النقص و القصور قوية أن يظهر بمظهر الشخص الخاضع الخانع ، الهاديء ، المتزوي ، المتوازن . ذلك أن مشاعر القصور يمكنها أن تعبر عن نفسها بآلاف الطرق وبمختلف الأساليب . وربما يتجلى الأمر أكثر وضوحاً . بمثال أضربه هنا عن أطفال ثلاثة إصطحبتهم أمهم إلى حديقة الحيوان لأول مرة . وأثناء وقوفهم أمام سياج الأسد ، فما كان من أحد الصبية الثلاثة إلا أن جفل إلى الوراء فأمسك بملابس أمه وهو يقول : (أريد أرجع إلى البيت) . ووقف الصبي الثاني منهم في مكانه حيث هو ، وهو ممتقع اللون ، يرتجف ، وقال : (أنا لست خائفاً أبداً) . أما الثالث من أولئك الأطفال الثلاثة ، فقد حدق بوجه الأسد بغضب ، وقال لأمه : (أتريدني أن أبصق بوجهه ؟) . كل من الأطفال الثلاثة أولئك إستشعر التصاغر أمام الأسد آنذاك ، لكن كل واحد منهم ، قد عبّر عن مشاعره بطريقته الخاصة ، بطريقته المتساوقة مع أسلوبه في الحياة كما يُحسها في داخل ذاته .

إن مشاعر النقص ، بوجه أو آخر ، إنما هي عامة شائعة في كل واحد منا نحن البشر ، ما دمنا جميعاً نجد أنفسنا دوماً في مواقف نتوق إلى تحسينها وتطويرها إلى ما هو أسنى و أرقى . فإذا كنا متماسكين ومحتفظين ، بعض الشيء ، بشجاعتنا ، فإننا نشرع بتخليص ذواتنا من مشاعر النقص هذه ونفضها بعيداً عنا ، وذلك فقط بالوسائل المباشرة ، الواقعية - وذلك عن طريق تحسين الموقف الذي نحن فيه نفسه . فما من إنسان يطيق تحمل أحاسيس النقص فترة طويلة ؛ ذلك لأنه في هذه الحالة سيجد نفسه وقد

ألقي به في أتون التوتر الذي ينتهي به إلى إتخاذ موقف ما . ولكن هب أن شخصاً شاء التخلص من عبء أحاسيس النقص الملازمة له ، بأساليب لاتفضي إلى حُسن الختام ، فإنه في موقفه هذا لن يكون قد ترحزح عن مكان كرباتهِ قيد أغلّة . ولكن هل ستنتهي صراعاته عند هذا القدر ؟ لا مماحكة في أن هدفه سيلبث : (أن يتغلب على مشكلاته وأن يبقى فوقياً بالنسبة لها) ، غير أنه بدلاً من قهر العوائق والتغلب على العقبات ، سيحاول خداع ذاته ^(٢) أو قد يلجأ إلى تحذير نفسه ^(٣) بالإيحاء الواهم إليها : إيحاء الإحساس بأنه متفوق . وهذا ضرب من الإيهام الذاتي الكاذب . وليس في هذه المراوغات الواهمة ما يغني عن النقص والقصور شيئاً . ذلك لأن أسّ المشكلة باق وعلتها في مكانها قابعة ؛ بل أن القصور سيتزاحم وأن مصاعبه ستتفاقم ، والسبب هو أن العوامل التي أحدثته باقية هناك ولم تزايله ، إنها لم تتغير . وكل خطوة سيخطوها ستأخذ به إلى خداع الذات self-deception ، وكل مشكلاته ستضغط عليه أكثر فاكثر فيمكث دائماً على هذه الحالة وكأنه في حالة طواريء لاتنتهي . وكلها محتدم أوارها في ثنايا نفسه ، فإذا نظرنا إلى حركاته ، من غير أن نفهمها ، فأننا نراها حركات عشوائية غير هادفة . وإنها ستترك لدينا الانطباع بأنها حركات ليست مصممة بإرادة سوية غايتها تحسين موقفها أو تطوير موقعها . وهكذا تلبث حاله يحاول جاهداً التنصل من ظرف كاتم، إذا به يقع في حبال ظروف أعتى . كل ذلك لأنه لم يسترشد ، أو لأنه يستسلم إلى إيهام الذات بأنه الأقوى ؛ انه هكذا يبدو في عين نفسه هو . وإذا هو أخفق في واقعه المهني أو الوظيفي مثلاً ، فإنه سيعوض ذلك بتحويله إلى متجبر متغطرس في وسطه الذي يعمل فيه فهو بمسلكه هذا يخدر ذاته ؛ لكن مشاعر القصور عنده باقيه في أعماق نفسه وفي مكانه الذي نبت فيه ونمت . إنها ستبقى هناك ثاوية في أعماق مجاري حياته النفسية : psychic life . ففي مثل هذه الحالة يمكننا حقاً أن نتكلم عن عقد نقص كائنة وقائمة.

وآن لنا الآن أن نذكر تعريفاً لعقدة النقص . إنّ عقدة النقص تظهر عادة عندما تبرز للفرد مشكلة معينة لا يكون الفرد مهياً لها كما ينبغي ، وعندها يعبر عن قناعته بعدم إقتداره على حلها . ومن هذا التعريف المبسط نستطيع أن ندرك الغضب يعبر عن عقدة النقص بمقدار ما تعبر الدموع والاعتذارات تماماً بتمام . وما دامت مشاعر النقص قائمة دائماً في نفس الفرد وتتسبب بإثارة التوتر لديه ، فإن هناك دائماً في ثنايا ذاته حركة تعويضية غايتها إيقاف مشاعر مقابلة ترمي الى التفوق ؛ لكنها مشاعر لا تلبث طويلاً في توجهها نحو حل المشكلة التي يعانيتها ، إنما هي ومضات من التمني سرعان ما تحبو . فالتوجه المخبوء صوب تمنيات التفوق سيكون توجهاً صوب الجانب الخاسر من الحياة . إذ ستمكث المشكلة الحقيقية ثمة منتصبة ، أو لعلها تكون مؤقتاً متنحية .

وعندئذ سيكون الفرد مهتماً بمحاولة تقليص مجال نشاطه وسيكون أكثر إنشغالاً بكيفية تفادي ما من شأنه إيقاعه في شراك الإنكسار ، بدلاً من الإقدام على محامد الانتصار . فهو ، لذلك ، يعطي لمن يلاحظ سلوكه ، صورة من التلكؤ والتردد ، صورة تظهر بأنه راكد في مكانه ، بل أنه يدبر هارباً أمام مشكلاته .

فمثل هذا الاتجاه يمكن بكل سهوله ملاحظته في حالات الخُوف^(٤) من الأماكن المفتوحة . وهو رُهاب لا مبرر له من الناحية المنطقية . وهذا العرض Symptom الرهابي يمثل تعبيراً عن اعتقاد متأصل في أبعاد أغوار صاحبه وكأن ذاته في أعماقه تتحدث : (يجب عليّ ألا أذهب أبعد مما أنا فيه الآن . يجب عليّ أن أبقى حيث أنا الآن في مجال الظروف التي الفتها وأن لا أجازف فأخرج من دائرتها . الحياة تعجُّ بالمخاطر فيجب عليّ أن أتجنب مجابهتها) . وحين يلزم هذا الاتجاه صاحبه باستمرار ، فإن الفرد في هذه الحالة يزوي نفسه في غرفة واحدة ، أو أنه يرمي على فراشه فلا

يبارحه . وابشع مظهر يتخذه المزاج أمام المشكلات هو الانتحار Suicide . و الانتحار دائماً يمثل أعنف تأنيب للذات وانتقاماً منها . ويمكننا أن نجد دائماً هناك ، في كل حالة من حالات الانتحار ، شخصاً ما، على عتبة داره يُلقي المنتحر مسؤولية إقدامه على الإنتحار . فالمنتحر يقدم على الإنتحار وهو يحمل سواه أسباب فعلته . فكأنه يقول لغيره : (أنا كنت أرقّ الناس وأشدّهم حساسية ، لكنك أو لكنكم عاملتموني بأقصى ضروب الوحشية) .

كل عصابي يقيّد ، بشكل أو آخر ، مجال نشاطه ، ويحدد مقدار تواصله مع الموقف الذي هو فيه كله . فهو في الغالب ينكمش بعيداً عن الآخرين وعن النور و الحياة ، فيكون وكأنه أوصد بابه ضد الريح والهواء ، لكنه في حقيقة الحال يكون قد أوصد أبواب ذاته ضد كل ما في الحياة فتتوقع . وإذا أتيح له شيء من أن يسيطر على من هم حواليه - كأفراد أسرته أو بعض زملائه - فإنه له أسلوبه الذي يعتمد : إما بالتخويف أو بالتأوهات الكاذبات الخادعات ، وطريقته هذه إنما تتوقف على ما مرّن عليه ذاته ودربها عليه فوجده في النهاية أنجح أسلوب لتحقيق غرضه Purpose . وغايته هي إنجاز هدفه في التفوق ، ولكن من غير نشاط ذاتي من جانبه يبذله لتحسين موقفه وتطويره إلى الأحسن . فالطفل الهَيَّاب الذي يشب متزهداً فحينما يجد أنه يستطيع أن يفرض وجوده على والديه بالدموع و البكاء سينشأ طفلاً بكّاءً ، وان الخط المباشر الذي سيتبعه في مسار تطوره سينتهي به من طفل صخّاب كثير البكاء إلى شخص كبير سوداوي^(٥) Melancholiac المزاج و النزعة . إذ أن الدموع و الشكوى - وهما وسيلتان كنت قد أسميتهما : (الطاقة المائية) Water Power - هما سلاحان فتّاكان بمقدورهما تخريب كل تعاون و تهديم كل بناء وتحويل حالة الآخرين إلى خنوع واستخذاء . فلدى هذا الصنف من الناس العصابين نلاحظ الخجل المكبّل ، و الارتباك المزعزع ، وعلى

السطح من ذلك كله تطفو عقدة النقص لديهم ، وانهم ما أسرع اعترافهم بواقع ضعفهم وعدم قدرتهم على تدبير أمورهم و العناية بأنفسهم . فالعجز سمة من سمات حياتهم . فذلك مالا يخفونه ولا ينكرونه . لكن ما يتكلمون عليه ويحاولون إخفاءه عن أنظار الآخرين هو هدفهم الطامح إلى السطوة و التفوق ، و توقانهم الجامح إلى الأولوية في كل شيء ومهما كان الثمن باهظاً : تحقيق غاياتهم أهم شيء عندهم بصرف النظر عن الوسيلة .

إن ما يسمى بـ (عقدة أوديب) Oedipus Complex ، ليست في الواقع بأكثر من شيء مثله كمثل (زريبة ضيقة) يزوي العصابي في أحد أركانها نفسه ، فيبقى متقرفصاً هناك . فإذا كان عصياً على فرد ما ، أن ينطلق في ميدان المحبة و التواصل الفسيح في دنياه الرحبة ، فلن يفلح في النهاية من تخليص نفسه من ربة هذه المشكلة . وذلك لأنه يبقى في قرارة نفسه متوجساً ، مزردداً خشية ألا يتمكن من بسط سيطرته على غيره بطريقته التي يختارها لذاته والتي كان قد نشأ معتاداً عليها . وإن ضحايا عقدة أوديب هم أطفال قد دلتهم أمهاتهم فأفسدت حياتهم منذ نعومة أظفارهم ؛ انهم أطفال نشأوا مدللين وقد وقرّ في أذهانهم واستقرّ في نفوسهم بأن لهم حقوقاً وامتيازات يتفردون بها دون سواهم وأنها مضمونة لهم طوال حياتهم ، ينشأون وقد ترسخ في عقولهم أنهم لن يظفروا بالعطف والمحبة خارج حدود الأسرة وبعيدا عن سياج المنزل . وعندما يبلغون شرح الشباب وحينما يصلون سن الرشد بحساب السنين ، لا بحساب النضج النفسي والاجتماعي ، فإنهم يكون مشدودين إلى أذيال أمهاتهم كيوم كانوا في اللفافات رُضّعاً . وعندما يبلغون سن الزواج فإنهم لا يبحثون عن شريك ^(٦) حياة يساويهم في المشاعر الإنسانية ، بل إنهم يبحثون عن خادم مطيع مُستعبد . وربما نحن الكبار نتسبب في غرس عقدة أوديب في نفس الطفل . وكل ما يتطلبه الأمر منا ، مالم نتحفظ ، هو

أن تفسده أمه بالتدليل ، وترفض أن يوسع اهتمامه ويمده ليصله غيرها من أناس آخرين ، فيلبث يدور حول ذاته وحول دائرة نفوذها الضيقة ، وما على الوالد في هذه الحالة السلبية كذلك ، إلا أن يكون لا أبالياً غير مكترث بابنه نسبياً ، أو أن يكون بارد العاطفة نحوه.

فهذه الصورة عن الإنكماش الإحجامي تكشف عن نفسها في جميع أنواع الأعراض Symptoms الخاصة بالعُصاب . ففي كلام الشخص المتلعثم Stammerer ، مثلاً ، نستطيع أن نتبين إتجاهه المتردد المتهيب . لا شك أن بواقي مشاعره الاجتماعية تدفعه من داخله إلى إقامة علاقات مع زملائه ومع من يحيطون به ، غير أن فكرته المتدنية الكامنة فيه عن نفسه ، وخشيته الملازمة له باستمرار من أنه قد يفتضح عجزه وقصوره إذا وضع على محك الاختيار ، كل هذا يتصارع مع إحساسه الاجتماعي النازع إلى أن يكون كغيره من الآخرين ، فيؤدي به التصارع المحتوم هذا، إلى التردد في الكلام فتبدو عليه اللعثة . وما أكثر الأفراد الذين هم في حالات على هذا المنوال . فثمة نماذج على ذلك كثيرة . من ذلك مثلاً ، أطفال المدارس المتخلفون في دراستهم ، والذين يبلغون سن الشباب أو يتجاوزونها قليلاً من الرجال والنساء فلا يجدون مهنة يستقرون عليها ، أو هم ممن أرجأوا الزواج فتأخروا فيه وعدوه مشكلة ، ومن هذه الفئة يمكن أن نذكر أيضاً الفصامين القهريين Compulsion Neurotics وهم فئة من الناس يعيدون تكرار العمل نفسه مرة تلو المرة بلا مبرر ، وهم يعرفون ذلك لكنهم لا يستطيعون التخلص من هذه العادة المستحكمة والمتحكمة فيهم ، ومن هذه النماذج كذلك الأفراد الأرقون^(٩) Insomniacs الذين يأرقون ليلهم كله أو جلّه يفكرون توجساً بما عملوه خلال يومهم الفاتئ فهؤلاء كافة يكشفون عن عقدة نقص تحول بينهم وبين تقدمهم في الحياة والتصدي لحل مشكلاتها.

وكنا قد ذكرنا من قبل أن مشاعر النقص ليست هي في حد ذاتها تعد شذوذاً لا غناء فيه . فهي كلها ، إذا ما أحسن استخدامها ، تعتبر من أسباب كل ما طرأ من تطور في مكانة الإنسان ووضعه عبر التاريخ . فالعلم نفسه ، مثلاً ، يمكن أن ينهض فقط عندما يحسب الإنسان أنه جاهل ، وأن ثمة أموراً عليه أن يتعلمها ، وأن عليه أن يطرد عنه الظلام ، وأنه بحاجة إلى تبصر بالمستقبل : إنه - أي العلم - نتيجة جهود مضيئة قدمها الجنس البشري ليرفع من مستوى واقعه الذي كان فيه ، وذلك لكي يدرك أكثر ولكي يتعرف على ما في هذا الكون ليتمكن في المآل من التحكم بظروفه في سباق ما هو فيه من مجال . والحق ، يبدو لي أن حضارتنا الإنسانية كلها قائمة على مشاعر الإحساس بالنقص . إذا كان بمقدورنا أن نتخيل زائراً قادماً من كوكب آخر جاء ليرقب بعين التجرد كوكبنا وما نحن عليه من حضارة ، فإنه سيخلص ، بلا شك ، إلى قناعة فيقول في ذات نفسه (أن هذه الكائنات البشرية وأن هؤلاء الناس في كل ما هم فيه من إرتباطات علائقية ، وكل ما لديهم من كيانات مؤسسية ، وكل ما أنفقوا من جهود لضمان الأمن والأمان لأنفسهم ، وكل ما ابتنوه من سقوف لبيوتهم لدرء المطر ، وكل هذه الملابس التي يرتدونها لإتقاء البرد والحفاظة على دفء أجسادهم ، وكل ما عبّده من شوارع وطرق لتيسير ما هم عليه من حركة وتنقلات كل هذه لتدل بوضوح على أن هؤلاء الناس يشعرون في قرارة أنفسهم أنهم أضعف ما على الأرض قاطبة) . وهذه حقيقة لا تدحض . وذلك لأنه على نحو أو آخر فإن الإنسان أضعف من كثير من المخلوقات على سطح هذا الكوكب . فنحن البشر ليست لدينا القوة التي يمتلكها الأسد مثلاً أو الغوريلا ، وأن هناك كثيراً من الحيوانات مستعدة على نحو أفضل ومهيأة بشكل أكمل لمواجهة مصاعب الحياة بذاتها دونما عون مباشر من أحد - فهي مخلوقات تكون إرتباطاتها فيما بينها ، فتؤلف قطعاناً يساند بعضها بعضاً ، لكن البشر بحاجة ملحاح أكثر من سائر المخلوقات والكائنات الأخرى ،

تقتضيهم التقارب و الالتفاف حول بعضهم لدرء ما يحقد بهم من أخطار ولضمان بقائهم مستمراً على وجه الأرض . الكائن الإنساني بوجه خاص يبقى ضعيفاً أيام طفولته كلها ، فيلث محتاجاً إلى الحماية و الرعاية عدداً من السنين طوالاً . وما دام الإنسان يدرك بأن طفولته أطول طفولة على وجه الأرض ، وانه إبان طفولته الممتدة تلك هو أضعف مخلوق ، وما دام يدرك بأنه من غير تكافل وتضافر و تعاون يكون دائماً واقعاً تحت رحمة البيئة و الظروف ، يتسنى لنا أن نفهم ، إذن ، لماذا ينساق أحياناً إلى النزعة التشاؤمية Pessimism ، الأمر الذي يحمله على الاعتقاد بأن كفة الشر و الشقاء أرجح ، في هذا العالم ، من كفة الخير و الهناء ، يترتب على هذا كله أن تنغرس في ذهنه وفي نفسه عقدة القصور . ومن هنا أيضاً نفهم إن الحياة لا تكف عن تنالي مشكلاتها التي تواجه الفرد في أية زاوية من زوايا كفاحه فيها . وما من فرد سيجد نفسه دائماً بمنجاة من مجابهة شيء من العقبات و المشكلات ، وما من فرد يجب أن يطمح إلى موقف حقق فيه كل هدف إليه يتوق وبه يكون قد نال مأربه من السيادة و التفوق . لكن هذا لا ينبغي أن يفتّ في عضدنا . لذ يخلق بنا أن نسعى دائماً إلى تلمس الحل لما يجابهنا ، ويجدر بنا ألا نخلد قانعين بما أنجزنا ، وانه ليتعين علينا أن نوطن أنفسنا على حقيقة أن كفاحنا في هذه الحياة لن ينتهي ما دامت الحياة ، لأن دينامية العمل و النشاط من متممات طبيعة الحياة .

ما من إنسان ، كما أحسب ، سيتبرم ويقلق نفسه فوق طاقتها حينما يدرك حقيقة لا غبار عليها ألا وهي أننا لا نستطيع بحال ، وفي خاتمة المطاف ، أن نبلغ أرقى الغايات في هذه الحياة . وإذا كان في طوقنا أن نتصور فرداً واحداً ، أو أيّاً من البشرية كلها ، بلغ موقعاً وكان وصل إليه من غير عناء ولا شقاء ، فما علينا إذن إلا أن نعتقد بأن الحياة ، في تلك الظروف و الحالات ، لم تكن إلا متبلدة مملة . فهذا يحفزنا إلى أن ننظر إلى

كل شيء ونتوقعه بتحسب مرتقب . إن اهتمامنا بالحياة أنما يتأتى في الأساس مما نبحت عنه من يقين . فلو كنا من كل شيء متيقين ، ولو كنا بكل شيء مسبقاً عارفين ، لما وجدت هناك مناقشات ، ولما حصلت ثمة إكتشافات ، بل وأكثر من ذلك لانتهى العلم وختمت نهايته . ولأصبح هذا الكون ليس أكثر من حكاية مكررة يعاد سردها للتسلي وحتى الدين و الفن ، وهما اللذان يبهجان أرواحنا ، وينعشان خيالنا - يفرغان من محتويات معناهما ومعانيهما لو كنا قبلاً بكل ما في هذا العالم عارفين ولأسراره مدركين . ولنعلم أنه لمن يُمن طالعنا وحُسن حفظنا ألا يكون كل ما نريد في هذه الحياة مُستوفى بالسهولة المتوقعة . فمن شأن ذلك أن يجعلنا دائماً متوفزين لما تأتي الحياة ومتأهبين لمخباتها الخافيات ، وهذا يجعل الفرد ^(١٠) مؤهلاً لأن يخطو إلى أمام بشجاعة وثبات وهو موقن بقدرته على حل مشكلاته وفقاً لما تتطلبه المشاعر الاجتماعية .

هدف مركّب الإستعلاء ، و التفوق ، و المغالاة في ذلك ، إنما هو مسألة شخصية وفريدة في بابها عند كل فرد . فهدفه هذا يتوقف على فهمه للحياة ، وهذا المعنى ليس مسألة ألفاظ يطلقها من بين شففيه . فهذا المعنى الذي يتبناه وينسج على منواله يكون جزءاً لا يتجزأ من بنية تكوينه الذاتي فيكون له أسلوب حياة يرافقه طوال عمره ، فيغدو أشبه بلحن غريب إستحدثه من إبداعه هو ومن إبتداعه . وهو يعبر عن ذلك بصورة غامضة بحيث لا يمكننا أن نحرز بسهولة مراميه إلا من خلال ما توحى به حركاته وإشاراته من دلالات . ذلك أن فهم أسلوب حياة شخص معين أشبه بفهم قصيدة ينظمها شاعر . فالشاعر يستخدم كلمات ، بيد أن المعنى الذي يرمي إليه أبعد من تلك الكلمات المسطورات على الورق أو المنطوقات . وان الجزء الأعظم مما يتوخاه من معنى يجب أن يتم التوصل إليه بالحدس و التخمين ، إذ يتعين علينا أن نقرأ ما بين السطور . وهكذا ، أيضاً ، هي الحال بالنسبة لأبعد أغوار ما يتوق إليه الفرد من انتهاز

لأسلوب حياة يرتضيه . وما على المختص بعلم النفس إلا أن يتعلم كيف يقرأ ما بين السطور ، يجب عليه أن يتعلم فن إدراك معاني الحياة - Life Meanings .

فمعنى الحياة يتم إدراكه وإضماره في ثنايا الذات خلال الأربع أو الخمس الأولى من السنوات . فالطفل يتلمس طريقه وسط ما تعجّ به بيئته حتى يثبت مرسى قاربه على ما أثر فيه وفي نفسه أكثر . وكذلك هي مسألة التفوق وما يتوق إليه الفرد . فهو يسعى ويجتهد ، ولكل امرئ هدف يرمي إليه ومنهج يتبعه لتحقيق أمانيه في التفوق .

لذلك يختلف الموقف من فرد إلى فرد ، كما هي الحال في اختلاف الأفراد فيما بينهم . وهذا يلزمنا بالنظر والتأمل فيما تحت السطح ، وان نحسب لما وراء ظواهر الأشياء . فالفرد قد يغير من طريقته لبلوغ هدفه المحدد ، كما قد يغير من أساليب تعبيره عن مقاصده في نيل ذلك الهدف ، وكذا الحال بالنسبة إلى تغيير مهنته ومنهجه . فينبغي إذن أن ينظر إلى خفايا الظواهر ، وان نتأمل في وحدة الشخصية كوحدة وما عسى أن يكون خافياً وراءها . ووحدة الشخصية هذه تكون مثبتة وثابتة في كل ما يصدر عنها من تعبيرات ولحات وإشارات . فلو أخذنا مثلاً غير منظم ، مثلاً ، وثبتناه بأوضاع مختلفة . فإنه في كل وضع يتخذه سيبدو لنا وكأنه مثلث مختلف تماماً عن المثلث الأصلي ، ولكن عندما نتمعن النظر متزوين فسنستبين أن المثلث دائماً هو نفس المثلث وليس سواه . فكذلك ، أيضاً ، هي الحال مع الطراز البدئي^(١) Prototype ، إذ أن محتواه ومؤداه لا يستوفى من خلال تعبير منفرد واحد ، ولا نستطيع تمييزه من مجرد استجابة عابرة ، وإنما لا بد من ملاحظة كامل إفصاحه عن ذاته التعبيرية بصورته المتكاملة . فليس بمقدورنا قط أن نقول لإنسان معين : (إن اجتهدك باتجاه إحراز التفوق سيكون كافياً وافياً إذا فعلت كذا

وكذا) وهذا معناه أن الكفاح ياتجاه الظفر بالتفوق لا يصب في قالب جامد، وإنما هو يبقى في مختلف ميادينه مرناً ، و الحق ، انه كلما كان الفرد أوفر صحة ، وأتم عافية ، وأكثر سوية ، كان حظه من إحراز قصب الرهان ، و الظفر بالتفوق أكبر ، ذلك لأنه بحكم مرونته سيبتكر منافذ نحو التفوق ^(١٢) جديدة ، حيث أن فرداً كهذا سيكون عن الجمود بمنأى . وان الإنسان العصابي فقط ، هو الذي يستشعر الجمود ، وهو يتوجه بصعوبة صوب هدفه المحدد ، وفي داخله صوت يناديه : (يجب أن أظفر بهذا ، وإلا فلا) . فهذا هو الجمود ^(١٣) القتال بعينه .

لا ينبغي لنا هنا أن نسوق تعميمات جارفة . وثمة ما ينبغي معرفته ألا وهو أن هناك عاملاً عاماً - أعني به أن كل فرد يتوق إلى أن يكون ملاكاً أو بمظهر الملاك في الأقل . وتحقيق الهدف هو أمنية الجميع . ولكل إمريء همومه وشكواه . وكل فرد يعتقد انه سوي وأن مشكلته مبعثها ممن هم حوله ، وليست من عصايته أو عقذته ناشئة . وليس بوسعي المقال في هذا المجال ، أنا إذ أذكر أكثر مما قاله نيتشه ، حينما أصيب عقله بلوثة وقد جُنّ ، فأرسل إلى سترند بيرد رسالة وصف فيها نفسه : (الصليب) . فهذا هو شأنه ، كما ظن ، في إظهار سامق تفوقه . وثمة من يسم ذاته بأنه (نابليون) ، أو أنه (امبراطور الصين) !

ما إن يستنجز هدف التفوق و يتحقق ، حتى تزول الأخطاء التي ارتكبت ، فلا تعود قائمة في منهج أسلوب الحياة . فذلك كفيل بأن يستطيع تصحيح وضع الفرد . إذ تصبح العادات Habits و الأعراض Symptoms مرتبة على مسارها القويم والسليم . فكل طفل مشكل ، وكل فرد عصابي ، وكل مدمن ، وكل مجرم ، يتوجه ، بوازغ من إيجانه الذاتي الذي يراه ، إلى تحقيق التفوق ولكن بطريقته الخاصة . فالتصرف الصبياني يكاد يكون وراء كل من يسعى إلى تحقيق هدف التفوق ياتباع ما

يخالف المؤلف . هذا تلميذ مدرسة ، كان أكسل تلميذ في صفه ، فسأله معلمه : (لماذا أنت بهذا التدني وبهذه الرداءة في عملك المدرسي؟) . فرد على معلمه بالقول : (إذا صرت أكسل تلميذ هنا في الصف ، فانك ستكون دائم الانشغال بي ، فتوجه جُل عنايتك نحوي . أنت لا تعير كبير انتباه إلى التلاميذ الجيدين في دروسهم ، ممن لا يزعجون جو الصف والذين هم يؤدون واجباتهم بانتظام) . فهو لكي يجعل نفسه في بؤرة الانتباه ومركز الإهتمام ، ولكي يتحكم في معلمه ، وجد العبث في الصف والتكاسل في الدرس أفضل وسيلة يصل بها إلى مبتغاه . وهو ، أيضاً ، احتاج إلى الكسل واتخذة سبيلاً لبلوغ هدفه الذي أراد ، ولكن على وفق طريقته الخاصة به .

العلاج المتبع في مواجهة مثل هذه الأمور ، حتى يومنا هذا هو التصدي للعرض الظاهري . وعلى مثل هذا الاتجاه يعترض علم النفس الفردي اعتراضاً لا لبس فيه ، من الناحيتين الطبية النفسية و التعليمية التربوية فإذا كان التلميذ متأخراً في الحساب ، مثلاً ، أو بقية التقارير المقدمة عنه ، لا ينفع شيئاً أن نذكر اهتمامنا على هذين الجانبين محاولين تحسين وضعه فيهما . فربما يكون تأخره متأثراً من رغبته في إقلاق معلمه ، بل لعله يريد أن يتخلص من المدرسة كلها فيلجأ إلى أسلوبه هذا من أجل أن يطرد من جوها . فإذا نحن تحريناه من زاوية معينة ، فلا تعييه الحيلة في أن يجد لنفسه مهرباً من منفذ آخر ليحقق هدفه . وهذه تماماً هي نفس الحالة ، مع الشخص العصابي الكبير . افرض أنه يعاني من الصداع النصفي (الشقيقة) Migraine ، مثلاً ، فإن هذه الصداعات الخاصة به وحده يمكن أن تكون جد نافعة له ومجدية لغرضه ، وأنها صداعات قد تواتيه أي وقت يشاء وفي اللحظة المواتية التي يكون هو بأمرس الحاجة إليها . فهو عن طريق صداعاته هذه يمكنه أن يتهرب من حل مشكلاته التي تجابهه في المجتمع ، وبما هي تواتيه عندما تجدد ضرورة استدعي التقاءه بأناس

جدد لا يرغب في ملاقاتهم ، أو حينما يتطلب الأمر منه إتخاذ قرار معين . فهي صداعات يمكنها أن تسعفه عندما يريد أن يتجبر على مرؤوسيه التابعين له في المؤسسة التي يعمل فيها ، أو حينما يريد أن يفرض سطوته على زوجته أو أسرته ككل . فلماذا نتوقع نحن منه ، ان يتخلى عن أداة مجربة كهذه خبرها فوجدها ناجحة ؟ ذلك لأن الألم الذي يمنحه لنفسه من وجهة نظره التي هو عليها وكما يمارسها ، هو خير إستثمار يمتلكه ، فلا ينوي التفريط به ، إذ أنه يعود عليه بكل العوائد التي يصبو اليها . ولا شك أننا نثير في نفسه الفزع إذا نحن قدمنا له إيضاحات كهذه ، ونكون قد أخفناه بأعراضه الكامنة فيه إذا أقدمنا على ذلك . وان العلاج الطبي ربما يتخفق من معاناته ويقلل من حدة آلامه ، وقد يجعل العلاج معاودة مصاعبه مستبعدة بعض الشيء ولو إلى حين . فهو علاج قد يشفيه من استمرار أعراضه ويعفيه من بعض آلامها النفسية . ولكن بما أن هدفه الذي أمضى نفسه من أجله يبقى هو هو لا يتغير ، فالموضوع لا شك يتداخل . فهو إذا جانب عرضاً معيناً ، فلن تنقصه الحيلة في إيجاد عرض غيره يتمتس خلفه . فاذا شفي من صداعاته ، فإنه سيستحدث لنفسه الأرق ، أو لعله يبتدع عرضاً جديداً طازجاً . انه لأمر مألوف ان تجد العصابين ما ان يسقطوا من حسابهم أعراضاً بسرعة لافتة للنظر ، حتى يلتقطوا أعراضاً سواها وسرعان ما يفعلون ذلك . ان ما يجب ان نتقصاه دائماً ، في حالات كهذه ، هو الغرض الذي احتضنه المريض وتبناه ومن أجله تحصّن بذلك العرض ، وان نتعقب هذا الغرض واتساقه والتصاقه بالهدف العام الرامي إلى الأعلوية التفوقية .

ولأضرب مثلاً على ذلك امرأة في الثلاثين من عمرها جاءتني إلى العيادة تشكو من قلق ومن عجزها عن إقامة علاقات وتكوين صدقات . ولم تتمكن من ان تتقدم في مهنتها وانها نتيجة لذلك بقيت عالية على أسرته . فكانت تتقل من عمل إلى آخر بدون استقرار في أي عمل معين .

وذكرت انها كانت تتلقى علاجاً سيكولوجياً لمدة ثمانية أعوام كما أظن ، لكن العلاج لم يفلح معها في جعلها إجتماعية تألف وتؤلف ، ولم يستطيع تحويلها إلى حالة من الاستقرار في سبيل الكسب في وظيفة محددة .

وعندما قابلتها في العيادة النفسية تتبععت ماضي حياتها إلى الأيام الأولى من طفولتها ، لأتبن أسلوب سلوكها ونشاطها في بواكير أيامها . وفي اعتقادي أنه ليس بمقدور أحد أن يفهم ما يمكن أن يكون عليه الشخص الكبير ما لم يتفهم وضع الطفل الصغير . وهذه المرأة كانت في أيام طفولتها مدللة من أمها . إذ كانت أصغر أفراد اسرتها ، وكانت جد جميلة ، فأفسدها أبواها بالتدليل ، ولا سيما أمها . وكل واحد كان يناديهما : (يا أميرة) . ولما كانت تختلط بأقرانها وأترابها من الجنسين لتلعب معهم كانوا يرونها متميزة . وقد أخذوا من بعد ، يقولون : (جاءت الساحرة) Witch . وهذه الكلمة أفرغتني وملأني رعباً في كل كياني .

فسألت امرأة مسنة كانت تسكن معهم في نفس البيت : (هل توجد حقاً ساحرة ؟) اجابتها تلك المرأة : (نعم ، توجد ساحرات ، ويوجد لصوص ، ويوجد سراقون ، وأنهم كلهم سيلاحقونك أينما ذهبت) . لقد غرس هذا الكلام في ذاتها الذعر . فكانت أخوف ما تكون عندما تخرج خارج المنزل أو عندما تكون بمفردها . ولما نهدت وصارت قباء^(١٥) تعرضت لمضايقات من أناس من الجنس الآخر ، ضاعفت من مخاوفها مما زاد حالتها ضعفاً على إباله . لذلك تسأسأت^(١٦) الأمور عليها وأختلطت ، فما عادت تميز بين الغث منها و السمين . فأعتقدت أن تفوقها وسر سيادتها في الحياة يكمنان في تخوفها من كل شيء ، والتشكيك بكل شخص وبكل شيء وعدم الإستقرار على أي شيء . فعدت نافرة ، هائجة ، خائفة ، هاربة من كل مكان ، فلا يقر لها قرار .

وكان من أمر هذه الفتاة ان كانت دائمة الهروب و التهرب ،
والتنقل من مكان إلى مكان . لأنها في قرارة نفسها غير مستقرة وكانت
تظن وملازمتها مكاناً واحداً يضرّ بأمانها . بقيت هذه حالتها ، حتى
كادت أسرتها تضيق بها . لولا شيء من تصابريهم وتصابر بعض أقاربها
عليها . فلو حدث ان تخلوا عنها لكان مصيرها إلى الجنون . لكن
إصطبارهم على ملالتها وعدم استقرارها ، انقذها من أن تهوي في
ظلمات الجنون . ولحسن حظها أن أسرتها كانت ميسورة الحال مما وفر لها
عوناً تتكئ عليه وتستند اليه .

وهنا أذكر حالة أخرى تلتقي فيها عقدتا النقص و التفوق في بنية
نفس الشخص . جيء اليّ بفتاة في السادسة عشرة من عمرها . فهذه
الفتاة اعتادت ان تسرق عندما كانت في سن السادسة من العمر . ولما
نشأت أكثر راحت تشرد في الليالي . اساس مشكلتها انها جاءت إلى هذا
العالم فوجدت الخصام مستقراً بين أبويها قبل ولادتها . فلما ولدت
إجتوتها^(١٧) أمها وتمنت لو لم تولد . بعد ولادتها بعامين افترق الأبوان
بالطلاق وانفصلا . عاشت هي و أمها مع جدتها لأمها . الجدة أفسدت
الطفلة بالدلال و الحماية المفرطة . ولما انغمرت في حماة السرقة ومساقط
التشرد ، سألتها : (لماذا كل هذا ؟) اجابت بانها كانت تكره كل ذلك
لكنها ارادت ان تثبت لأمها بأن لا سيطرة لها عليها . فلما سألتها :
(قمت بهذا انتقاماً من أمك ؟) أجابت أن : (نعم) . كانت تلك البنت
تشعر بأن أمها تكرهها فأحست ازاء ذلك بعقدة نقص وقصور . والطريقة
الوحيدة التي اعتقدت انها تؤكد فيها تفوقها ، هي بأن تتمرد وان تتسبب
في حشد المزعجات وجمع المنغصات .

وهذه حالة أخرى تخص فتاة في الخامسة عشرة من عمرها . إختفت
لمدة ثمانية أيام بلياليها ، ولما عثر عليها أحيلت إلى محكمة الأحداث .

أحالتها المحكمة إلى طبيب ، لكنها ثارت في وجهه ولطمته على خديه .
أحيلت إليّ فأخذت الاطفها بتودد حتى أنست وجودي لديها . سألتها أن
تقص عليّ حلماً رأيته قريباً ، فكان : (رأيتني في الأماكن التي يلجأ إليها
المتشردون ، وبعد أن خرجت من عندهم رأيت أمي . وسرعان ما رأيته
أبي قادماً ، فما كان مني إلا أن طلبت من أمي ان تخبني ، بحيث لا يراني
أبي) . من حلمها هذا يتضح ان والدها كان يخيفها بالفعل وكان يضربها .
وكانت تكذب . فارادت ان تنتقم وارادت أن تحقق تفرقها بطريقة ملتوية
وان تجلب الانتباه إلى ذاتها بتلك الأساليب العرجاء . ارادت أن تنتقم
لذاتها بواسطة إيذاء والدها الذي كان دائماً يؤذيها بالضرب و القهر .

كيف بالناس الذين ضلوا سواء السبيل إلى التفوق يمكن ان يُتشلوا
من ضلالهم و يُقدّم لهم العون ؟ إنه ليس بالأمر العسير إذا ما أدركنا أن
التفوق و السعي إليه أمنية كل إنسان وهو في حقيقة الحال هاجس بين
البشر كافة شائع . بمقدورنا ، اذن ، ان نضع أنفسنا في مواقفهم وأن
نتعاطف معهم في كفاحهم في أن جهادهم واجتهادهم يكون قد زاغ عن
الجانب القويم في معترك الحياة . فلا يمكن أن ننكر على الفرد ، أو
نستنكر عليه سعيه تجاه التفوق في الحياة . ذلك لأن الكفاح الجاد الذي
يقوم به المرء بشكل مشروع من أجل التفوق هو الذي يكمن وراء
الإبداع ، وأنه مصدر جميع الإسهامات الرائعة التي خدمت حضارتنا
الإنسانية . و حياة الإنسان بأكملها إنما تتقدم وفق هذا النهج العظيم من
العمل القويم - أعني بذلك السير من أدنى إلى أعلى ، ومن النقص إلى
التكامل ، ومن الإندحار إلى الإنتصار . وان الذين باستطاعتهم شق
طريقهم على هذه الصورة هم فقط أولئك الذين يدركون هذه المعاني حق
إدراكها : أولئك الذين يدور في خلدتهم إثراء حياة الآخرين وإغناء معالم
الحياة . فإذا نحن توجهنا نحو الآخرين وفق الأسلوب السليم ، فلن نواجه
صعوبة تذكر في حملهم على الإقتناع بما نريد . فالغاية مشتركة بين جميع

الناس : وكل ما ننشده من سلوك ، وما نتطلع اليه من مثل عليا ، وما نصبو اليه من أهداف ، وما نرمي اليه من أنشطة ومن أخلاق مرتجة ، كل أولئك نتوخاها من البشر ، لا لشيء ذاتي يخص أي واحد منا وحده منفرداً ، وانما ليكون رائد الجميع التعاون و التكافل وذلك لصالح الفرد والجميع . وانك لن تجد أبداً إنساناً خاوياً تماماً من الحس الاجتماعي . وحتى الشخص العصابي ، و المجرم العادي ، يعرفان هذا السر الواضح المفتوح . غير أن مشكلتهما تكمن في خطأ أسلوب الحياة الذي هوى في مصائده كل منهما . ففي جوف كل منهما صوت عقدة نقص تهمس في اعماقهما قائلة لهما :

(ان النجاح في التعاون ليس من ثوبيكما) . فأنكفئنا على ذاتيهما هرباً من مشاكل الحياة الحقيقية ، وأنغمسا في معارك جانبية لتأكيد ذاتيهما واثبات قوتهما ، لكنهما في واقع الأمر ضالا سواء السبيل وصرفا عن حقائق الحياة .

فتضافر العناصر بين أبناء البشر ينطوي دون ادنى ريب على عدد من الفضائل جم . ولكل منا نحن البشر توجهات وحالات نفسية ، ومشاعر حسية ومعنوية ، منها المرضية ، ومنها السوية . ولكل فئة أفكار استفرغت آراءهم ، واستغرقت أوقاتهم ، وأستنفدت أعمارهم .

هوامش الفصل الثالث

١ - علم النفس الفردي عند الفرد أدلر يمثل نظرية قال بها وقد اتبعها من حيث التطبيق كثير من المختصين بعلم النفس . وملخص النظرية ان لكل شخص صياغة فريدة ، وله من الدوافع والسمات والاهتمامات والقيم ، وان كل فعل يصدر عن الشخص يحمل أسلوبه الخاص المتميز في الحياة .

(المترجم)

٢ - استخدم المؤلف كلمة Hypnotize ومعناه الدقيق و الحقيقي : التنويم المغناطيسي ، وفي هذا الموقع لا تتفق والمعنى الذي أراده المؤلف ، وانما استخدمها مجازاً ، ولذلك ترجمتها كما في المتن وهو الأوفق .

(المترجم)

٣ - استخدم المؤلف كلمة Auto - Intoxicate .

(المترجم)

٤ - الخوف Agoraphobia : أو الخوف المرضي وغير الطبيعي من الأماكن الفسيحة كالميادين العامة و الصحارى .

(المترجم)

٥ - المنخوليا ، و المنخولي (وهي الصفة من منخوليا) : وتسمى الكآبة الحادة احياناً . حالة مرضية نفسية تتسم بالاكتئاب المصحوب بوظائف حركية كاسدة وبهياج شديد وعريضة فجأة عند الاستشارة .

(المترجم)

٦- شريك على وزن فعيل يتساوى فيه المذكر و المؤنث . ثم ان العصاب يصيب الجنسين لذلك فالعصابي يبحث عن شريكة حياة ، وكذلك العصابية .
(المترجم)

٧- التلعثم و اللعثة : اضطراب في النطق ، وتردد لا ارادي في الكلام و التحدث ، سببه نفسي في الغالب واسبابه كثيرة .
(المترجم)

٨- القهر بمعناه الإصطلاحي النفسي قوة داخلية عند بعض الأفراد لا تقاوم ، تجبر الشخص المبتلي بها على القيام بعمل ضد إرادته ، كما لو كان هناك داخل الشخص شخص ثانٍ يأمره فيطيع .
(المترجم)

٩- الأرق قد يكون استجابة مؤقتة لإثارة أو لإضطراب إنفعالي لدى شخص معين ، ولعله يكون سمة له نتيجة لخوف ، أو تطير ، أو شعور بالذنب ، أو احساس بالنقص الخ .
(المترجم)

١٠- لا عجب إذا ما وجدنا المؤلف يكرر كلمة (الفرد) ، ذلك لأنه صاحب مدرسة علم النفس الفردي ، وقد اشرنا إلى ذلك من قبل .
(المترجم)

١١- الطراز البدئي ، يقصد به الشكل الأبكر للكائن العضوي أو لعضو معين منه ، كما يراد به النموذج الأصلي للإستجابة .
(المترجم)

١٢- يستخدم المؤلف كلمتي Superiority و Supremacy ، ويريد بهما الترادف في المعنى ، لأن اللفظتين تتقاربان في معناهما القاموسي كما يوضح ذلك قاموس اكسفورد الموسع ، وأحياناً مختلفان من حيث التفصيلات .
(المترجم)

١٣- يتحدث المؤلف عن الجمود و المرونة ، ويرمي في ذلك إلى الجانب التشخيصي . فالمرونة من سمات الشخص السوي ، و الجمود يستدل منه على الحالة العصبية .
(المترجم)

١٤- هذا النمط من البشر ، ال جانب أعراضهم وأمراضهم النفسية ، تتحكم فيهم أمزجتهم القلب ، وماضي تجاربهم وخبراتهم الطفولية .
(المترجم)

١٥- نهدت الفتاة فهي ناهد ومثلها قباء : أي بلغت وارتفع نهداها ، وجمعها نواهد وناهدات ، وقباء جمعها قب الصدور : مرتفعات الصدور .
(المترجم)

١٦- يقال تسأست الأمور وتشأشأت إذا اختلفت واختلطت فلا يعود التمييز بينها سهلاً .
(المترجم)

١٧- يقال إجتواه : أي كرهه .
(المترجم)

١٨- استخدم المؤلف كلمتي Minus and Plus ، لكنهما في ترجمتهما الحرفية لا يؤديان أبداً إلى المعنى المستراد في الكتاب ، لذلك ترجمتهما كما ورد معناهما المثبت سابقاً .
(المترجم)

الفصل الرابع

بواكير الذكريات وأثارها الباقية

لما كان المرء بجَدِّ بلا كلل ليظفر بفرصة مؤاتية ، هو المفتاح لشخصيته كلها ، فإننا سنجد المفتاح هذا كائناً في كل ملتقى من تكوين حياته النفسية Psychic . وأن فهم هذه الحقيقة وإدراكها حق الإدراك يجعل في متناول أيدينا أداتين فعاليتين تمكنان من تفهم ما للفرد من أسلوب في حياته يتبعه . أولى هاتين الأداتين ، هي ان نتمعن بكل ما يصدر عن الفرد من تعابير ، وفي أي اتجاه تكون موجهة أو تسير - فلن تعدو تلك التعابير الا ان تكون نابعة من دافع وحيد ، من تنغيم منفرد ، حوله تتمحور الشخصية وفي نطاقه يُستكمل بناؤها . وثانية تينك الأداتين ، هي أننا يتهياً لنا خزين هائل من المادة المعرفية ، بها نتمكن من استقراء ما يكّد الفرد في سبيله لإثبات وجوده و الإفصاح عن جوهر كينونته . فكل لفظة تندُّ عنه ، وكل إحساس يستشعره ، وكل فكرة تنبض بالإفصاح ، وكل اشارة يأتيها ، إنما هي أمارات لها من ورائها بواعثها القابعة في طوايا صاحبها مما يمكننا من الإدراك ، ومغزى ما تلمع اليه .

وأي خطأ متعجل يصدر عنا في الحكم على السلوك التعبيري الصادر عن الفرد ، في المستطاع تصويره على الفور بألف وسيلة تنكيء إلى دفائن

الشخصية التي لا يسر غورها بالحكم السطحي . فلا ينبغي لنا ان نبي حكمنا عن هنة عابرة بمفردها وبمعزل عن التركيب الكلي للذات الإنسانية ؛ بل يجدر بنا أن نقيم أحكامنا على التصور الكلي المتكامل لبنية الفرد . مثلنا في هذا مثل علماء الآثار Archaeologisti الذين ينقبون عما طمرته عوادي الزمان فيجدون شظايا آنية خزفية ، وآلات و أدوات ، وجُدراً ^(١) متداعية من أبنية منهارة ، وموميوات ^(٢) مهشمة ، وأوراقاً من البردى ، ومن هذه المخلفات و العدمليات ^(٣) يمضون قدماً في استخلاص واستنباط حياة مدنية باكملها كانت قد أضمحلت وعفى عليها الزمن . هذا بالنسبة لعوادي الأيام وما عساها أن تفعله بالجمادات . أما بالنسبة لشخصية الإنسان فانها أمامنا منتصبة وبأستمراريتها الحية توحى ألينا بما تخفي وراءها من مكامن تستحق البحث والتأويل .

انه ليس بالأمر السهل أن تفهم بسرعة الكائن البشري . ولعل علم النفس الفردي أصعب فروع علم النفس لأن تتعلمه وتمارسه . فهو لاشك أصعبها تعلماً وتطبيقاً . إذ من العسير أن نأخذ الأمور بأجزائها ، فلا مندوحة من ان نصغي دائماً للأنغام الجسمية ، متناغمة مجتمعه . وينبغي أن نتحفظ من القناعة الساذجة حتى يكون في قبضتنا البرهان المبين فنقطع الشك باليقين . يتعين علينا ان نستكمل لمحات من حشد متيسر ومتاح من الإشارات ومن ذلك مثلاً - الطريقة التي يدخل فيها الشخص علينا الغرفة ، الطريقة التي يحينا بها ، الطريقة التي يتسم بها الفرد ، الطريقة التي يمشي بها ويتحرك . فاذا اخطأنا الحكم في واحدة من تلك فلن يجانبنا الصواب في سائر التعابير و التعبيرات و الحركات . وان علاجنا يفلح وينجح إذا نحن ركزنا إهتمامنا على الآخرين . يجب أن تكون لنا القدرة على ان نرى بعينه وان نسمع بأذنيه . وهو ، من ناحيته ، يجب ان يكون إيجابياً مع المعالج . وعلينا من جهتنا أن نتفهمه من خلال إتجاهاته كلها

ومن ثانياً مشكلاته برمتها . فالفهم الناقص يفضي الى فهم للمريض ناقص، وربما تكون هذه هي العلة وراء ما تسميه بعض مدارس علم النفس : (الطرح السلبي و الإيجابي)^(٤) Negative and Positive Transference في أساليب العلاج التي تنتهجها . مهمتنا العلاجية تتوفر على التعاون مع المريض لإنتشاله من وهدهته التي هوى فيها ربما لظروف قهرته وقهرت أرادته واستحوذت على كل كيانه . فشفاؤه إذا هو تعاون مع المعالج ، مضمون ، الا اذا كان هو أثقل من نقل الصخر^(٥) ، وأفرّ من الزئبق^(٦) .

ومن بين تعبيرات الحياة النفسية ، وامضاها كشفاً لنوازع الفرد هي ذكرياته . فالذكريات هي تذكارات يخترنها في كيانه وفي ثانياً ذاته حافلة بما خبره في حياته من تجارب منها السار ومنها الكارب الضار . وليس ثمة ما يسمى أحياناً بـ (ذكريات المصادفة)^(٧) Chance Memories . فكأنها ذكريات طرأت على الفرد من عوالم خارج مجمل ذاته المتفاعلة مع ظروفها المعاشة ، لذلك فإن ذكرياته في محتشد مخزونها تمثل له همسات نفسه التي تقول : (انها قصة حياتي) Story of My Life إنها قصة يحكيها مكرورة من غواير ذاته لجديد ذاته ، يحكيها وفيها عبرة تحذره ، أو تكشف عن خبرة بالراحة تشعره ، قصة حياته تهديه ما إكتنزته من عظات تنير له بأشعاعها موضع هدفه الصحيح ، أو لعلها تهيه ، بماضي خبراته ، للأستعداد لمواجهة قابل ايامه الآتيات بسلوك كان قد تمت سلامة اختباره مسبقاً . وان حسن استخدام مخزون الذاكرة لتلمح اثاره ظاهرة في توازن المزاج Mood وفي حسن السلوك في رحاب الحياة اليومية . فاذا كان هناك شخص ما ، يعاني من إنهمزام في داخله واحس من جرائه بالخور والإحجام ، فانه في مسلكه هذا يكون قد استذكر أمثلة كانت قابعة في اعماق ذكرياته إذ كانت رواقد فجدا ما استدعاها فأحبطته وأجبنته . واذا كان منخولياً فمعنى هذا ان سوابق ذكرياته الكوامن كانت منخولية .

واذا كان مستبشراً ، بشوشاً وشجاعاً ، فانه في الحالة هذه يصطفي لذاته ذكريات جد مغايرة لتلك الآنفة ، و الأحداث التي يستذكرها ويسترجعها ، هي تلك المفعمة بالأفراح والمسرات ، تلك التي تؤكد في أعماق كيانه نزعة التفاؤل . وعلى نفس النهج ، فانه إذا أحس بمواجهة مشكلات مستجدة ، فإنه يستحضر في ذاكرته كوامن ذكريات ملائمت من شأنها مدّه بالعزم لمجابهة تلك المشكلات وذلك بتهيئة المزاج الموائم لديه . فالذكريات بهذا تخدم نفس الغرض الذي تضطلع به الأحلام . فكثير من الناس عندما تستدعى الضرورات منهم إتخاذ قرارات ، فأنهم يحلمون في منامهم بامتحانات يرون فيها انفسهم وقد اجتازوها بنجاح . فمخزون الذكريات يعد من عوامل اعادة توازن المزاجات . ولهذا ، فإن الفرد المنخولي لا يستمر منخولياً إذا هو استعاد في ذاكرته أطيب لحظاته وتذكر سابق نجاحاته . هذا ، وان الذكريات لن تجري ضد تيار مجرى أسلوب الحياة .

للذكريات الباكرات في حياة الانسان أهميتها ومغزاها من مبتدأها . فهي من حيث بداياتها تعكس أسلوب الحياة باصوله التي يتكسب اليها وجذوره التي يعبر عنها . فمن تلك البدايات نستطيع الحكم ما إذا كان المرء في طفولته مدلاً أم انه كان مهملأ فلم يلق الإهتمام ؛ ومن تلك البدايات يمكننا أن نعرف ما إذا كان قد تم تعويده على التعاون مع غيره والتواصل نفسياً مع من يحيطون به . ومن هم الذين أحب التواصل النفسي معهم أكثر ، ما هي المشكلات التي واجهته ، وكيف كافح ليتصدى لها . وان ذكرياته في الغالب تستيقظ في طوايا عقله لتبدأ تحدثه بقولها (كنت قد نظرت حولي) وفي ذكريات طفولته تستعاد إلى مجال النشاط انطباعات ذات طبيعة بصرية ذلك لأن كل ذاكراته كانت يومئذ حسية . وجميع ذكريات الطفولة المستذكرة منها تكون أقرب ما تكون بعدئذٍ إلى اهتمامات الفرد الحاضرة ، واذا تعرفنا على اهتماماته

الأساسية فنكون بذلك أقدر على فهم أهدافه ومرامييه ، وبالتالي نستوعب واقع أسلوب حياته . ان هذه هي الحقيقة التي تجعل لبواكير الذكريات كل هذه القيمة المهمة في التوجيه المهني و الإرشاد النفسي . ومن تلك الذكريات الباكرات نستشف علاقة الطفل بأمه و ابيه ، وكيف كانت ، وكيف حدث به أن يكون كما هو عليه بعد تخطي مرحلة الطفولة وأليفاع ووضع أولى خطواته على عتبة المجال الأرحب .

وأكثر ما يلقي ضوءاً كشافاً على حياة الطفل في قصة حياته ، هي الطريقة التي يبدأ بها أحداث طفولته . واولى ما يستذكره من تلك المآخذ والأفراح والصبوات . ولو سألنا أطفال المدرسة ، وتلامذتها ان يكتب كل واحد منهم ما يعنّ له من احداث طفولته ، وحللناها لتفهمنا كثيراً مما كانوا يتطلعون اليه ، لأدركنا معظم ما كانوا يتمنونونه واليه ويتوقون . فهي ذكريات تعبر بصدق عن واقع بيئتهم التي عاشوا في كنفها .

دعني ، على سبيل التوضيح و التمثيل ، اذكر قليلاً من الأمثلة عن الذكريات الأولى ، ومن ثم أحاول تفسيرها . واني لا أعرف عن الأفراد شيئاً من قبل أكثر مما أعرفه عن ذكريات تخصهم ذكروها . وان ما يسرد من ذكريات تروي مخزونها يمكن أن يحصر بأساليب أخرى تصدر عن شخصياتهم ذاتها فتتم مضاهاتها؛ ولكن يحسن بنا ان نتأبى في استعمالها كما هي ، وان نفيد منها في الممارسة ودقة التخمين . ومن التفرس بدفائن هذه الذكريات يصبح بوسعنا تحكيم البراعة العقلية فيما إذا كان الفرد إتكالياً أو إستقلالياً في ذاته ، وفيما إذا كان إيجابياً إثارياً ، أو ذا نزعة سلبية أنانية . فللبداية التي يستهل بها الفرد حكاية عن ذكرياته ، دلالتها الرمزية ، منها تستقرأ رواقد تجاربه وخبراته . والى القاري أسوق نماذج من ذلك :

١- (عندما كنا أنا وأختي) أنه لمن الأهمية ، أن ننسبه إلى أي الأشخاص حصل أن كان لهم التأثير الأول في حياة الطفل (ان أختي كانت) فهنا نجد الأخت هي التي نقشت آثارها في أول أحافير الذاكرة . وهذا يسمح لنا بالقول ، ونحن جد متأكدين ، بأن المؤثر الأول في حياة هذا الفتى أو الفتاة كان تأثير الأخت قبل غيرها . ولعل الكاتبة التي ذكرت بواقى آثار الذاكرة في نفسها كانت بنتاً . (وإنني لأتذكر بوضوح أن أمي أخبرت كل واحدة منا كم كانت تشعر بالوحشة عندما ذهبت في أول يوم إلى المدرسة . إذ قالت كم من مرة خلال ذلك اليوم كانت تهرع إلى الباب الخارجي للدار دون وعي منها ، وكررت ذلك عدة مرات قبل عودتنا أنا وأختي إلى المنزل . -أمنا- تفعل ذلك وكأن فيها خشية تساورها من عدم عودتنا) . يبدو أن الأم كانت فائضة عاطفه باللغة الحنان ؛ وأن لم يكن وصف صاحبة تلك الذكريات ينم عن ذكاء متميز . ولو أتيج لنا أن نسألها لأتضح لنا ان تفضيل الأم كان إلى الأخت الصغرى اجلى . ومن مجمل الذكريات الأولى لهذه الفتاة ، بمقدوري أن أستخلص بأن أختها الصغرى كانت تكوّن عائقاً لها يمنعها من الإنطلاق كما كانت ترغب ، لذا أعتبرت تلك الأخت معوقاً لها ، ومنافساً يستأثر من حنان الأم بقسط أوفى . لهذا نجد فيما بعد من حياة الأخوة والأخوات شيئاً من الغيرة تضطرم في نفوس الأخوة الكبار من أخوانهم الصغار والأخوات الكبيرات من أخواتهن الصغيرات ، فتكون الغيرة هذه مصحوبة بشكل خفي، غير مشعور به في الغالب ، من خوف من المناقشة . لهذا ، فلا يجب أن يدهشنا عندما نجد في معظم الأحيان ، تتفشى بين النساء ظاهرة كراهية المرأة الكبيرة إلى المرأة الصغيرة ، والأحاساس غير المعلن بغيرة المرأة الأكبر سناً من تلك الأصغر منها سناً .

٢- (اولى ذكرياتي كانت عن جنازة جدي . كنت في الثالثه من عمري يومذاك ^(٨)) فتاة كانت هي التي كتبت هذا . فكانت متأثرة

حتى الأعماق بحقيقة الموت وهول منظره كأول خبرة ترى جلائلها في غضّ طفولتها . فماذا كان ذلك يعني لها ؟ ان مهابة الموقف وحدث الموت أنبت في نفسها عدم الأمان ، وغرس في ذاتها ان ليس ثمة ما يمنع الإنسان ويحصنه ضد الغوائل في حياته . أن الإنسان مهدد . هكذا توالت دوائر خيالاتها إتساعاً . كانت مستفظة موت جدها . مما يدل على أنها كانت أثيرة عنده ، فأحست في نفسها بخوف مزدوج : انها افتقدت الدلال من جهة ، ومن جهة أخرى ، خضخض كيانه ضخامة المشهد الذي لم تألف مثله من قبل . فكأنه أنبأها قبل الأوان بأن مصيرها يوماً ما ، إلى مثل هذا الشأن ، اما متى ؟ فلا تدري . فكأنها باتت مهددة وبلا أمان .

٣- (أذكر عندما كنت في الثالثة من عمري ، والدي) فمن الهولة الأولى جاء ذكر الأب . وهذا يمكننا من الاستنتاج بأن هذه الفتاة كانت أشد اهتماماً بأبيها منها بأمها . والمتفق عليه سيكولوجياً ، ان الاهتمام بالأب يمثل دائماً مرحلة ثانية من مراحل تطور الطفولة . ففي المرحلة الولي من الحياة يكون الطفل بأمه الصق لأن العناية به ، وحمائته من عوادي البيئة ، وتغذيته ، كل هذه مصدرها الأم . وهذا يتم في العامين أو الثلاثة الأولى من حياة الطفل . فأولى المجابهات النفسية للطفل مع حياته ، تبدأ من عند دائرة الأم ومن دفاء حجرها .

(.... والدي اشترى لنا حصانين) هنا نستدل على أنه كان هناك في اسرة صاحبة الذكريات أكثر من طفل واحد ثم تستطرد صاحبة هذه الذكريات فنعرف كانت الصغرى . ونستنبط ان أختها الكبرى كانت مفضلة أمها ، لهذا فضلت كاتبة المذكرات أبها .

(كنا في العربة التي يجرها ذانك الحصانان . كانت أختي دائماً هي التي تصر على أن تتولى توجيه الحصانين وتقودهما بالألجمة^(٩)) . (كنا

احياناً نقود حصانينا فكانت دائماً تريد احراز السبق) . فهي كانت تحس بانكسار في النفس إذ أختها تبرزها . هذا يجعلنا على يقين من أن لسان حالها الصامت يهمس في داخلها : (إذا انا لم أحتز ، فإن الفوز سيكون دائماً في جانب أختي . ذلك سيجعني دائماً انا الخاسرة ، دائماً أنا الخجلى . لكي أضمن لنفسي الأمان ، عليّ أن أكون أنا الفائزة) . ومن هذا نفهم كذلك أن الأخت الكبرى كانت هي الحائزة بانتباه الأم ، لذا تحولت الصغرى إلى الاستئثار بالمكانة عند الأب .

٤ - (أولى ذكرياتي تتعلق باصطحاب أختي الكبرى لي إلى الحفلات والنشاطات والمناسبات الاجتماعية الأخرى ، وكان عمرها ثماني عشرة سنة عندما ولدت) . هذه الفتاة تقترن ذكرياتها بأنها جزء لا ينفصل عن المجتمع ، ولعلنا نجد في مثل هذه الذكريات نوعاً من حب التعاون يتجلى أكثر مما في بقية الذكريات التي مرت بنا حتى الآن في متن الصفحات الآتية . اختها الكبرى تولت دور الأم للأخت الصغرى ، ولعلها دللتها إلى حد ما ، ولكن يبدو أنها عرفت كيف تقدمها للحياة الاجتماعية بمهارة وذكاء .

٥ - (حدث واحد كبير ينتصب ماثلاً في بواكير طفولتي ذلك هو عندما كنت في قرابة الرابعة من عمري جاءت جدة أُمِّي لزيارتنا) مرّ بنا من خبراتنا ان الجدة من جهة الأم أو من جهة الأب تفسد عادة احفادها بالتدليل ، اما كيف تفسد الجدة الكبرى - جدة الأم أو الأب - فذلك ما ليس لدينا فيه خبرة ولا سابق تجربة . (أثناء اقامتها معنا التقطت لنا صورة تضم أجيالاً أربعة) . هذه البنت ، كما يبدو ، كانت شديدة الاهتمام بشجرة العائلة وبسلفها . ومن حديثها عن الصورة ومن ذكرياتها المبكرة عن أسرتها ، لعلنا نستطيع ان نخلص الى أنها كانت وثيقة الالتصاق بافراد ائلتها . واذا كنا محقين في تصورنا هذا ، فيكون بوسعنا

ان نكتشف ان قدرتها في مدّ آفاق التعاون مع سائر الناس الآخرين لن تتجاوز حدود أفراد عائلتها فقط.

(وأتذكر بوضوح أننا ذهبنا إلى بلدة أخرى وقد استبدلت ببديلي بدلة أخرى بيضاء مطرزة بعدما وصلنا إلى ستوديو المصور) . لعل البنت من النمط البصري Visual Type . (بعدما التقطت لنا الصورة التي تنتظم الأجيال الأربعة ، التقطت لنا صورة أنا وأخي تضمنا نحن الاثنين) .

فهنا نرى ثانية مقدار الاهتمام بالأسرة وأفرادها . (خلال انتظامنا أنا وأخي للصورة أجلس هو على كرسي بمسندين وأعطيت له كرة حمراء ليمسكها أمام آلة التصوير . اما أنا فقد وقفت إلى جانبه وقوفاً على قدمي ولم أعط شيئاً لأمسك به) . من هذا نتبين أن هذه البنت كان يحز في نفسها ، إذ ترى أخاها مفضلاً عليها . وبمقدورنا أن نخمن أيضاً أنها رأت في ولادة أخيها الأصغر حدثاً يزرّي بمكانتها في قلوب العائلة ، فأعطي هو الأفضلية عليها بالتدليل ، فأحتل بدلاً منها ، مكانة ، كانت هي بها أجدر . (طلبوا منا أن نبتسم) . فهي تعني : (انهم حاولوا أن يجعلوني أبتسم ، ولكن ما اذلذي انالوني أياه لأبتسم من اجله ؛ إنهم أجلسوا أخي على عرش وسلّموه كرة حمراء لماعة ؛ اما أنا فماذا أعطوني ؟) .

(ثم جاء دور صورة الأجيال الأربعة . إذ كان على كل واحد منا أن يعرض نفسه في الصورة كأحسن ما يكون ما عداي أنا . فماذا عندي . فلا أبتسم اذن) . هنا تبدو أنها تضمّر نزعة عدوانية ضد أفراد اسرتها ، حيث لم يكونوا قد أظهروا نحوها ما تتوقع من عطف كما تراه هي . (أخي ابتسم ، ابتسامة عريضة ، أما أنا فما زلت حتى هذا اليوم أمقت تلك الصورة التي التقطت لنا) . مثل هذه التذكارات يمنحنا نوعاً من

الاستبصار الجيد عن الطريقة التي نواجه بها الحياة . إذ نلتقط فيها انطباعاً واحداً ومن ثم نستخدمه مبرراً نستقري في ضوءه سلسلة كاملة من الاعتبارات السلوكية مما كتبته هذه الفتاة عن أولى ذكرياتها . ثمة ديلان رئيسيان يبرزان من بين ثنايا أحاسيسها : اولهما ، انها كانت بصرية النمط وثنائهما ، ولعله الأهم ، انها مشدودة إلى اسرتها ، ولكن بتحفظ مع شيء من المضاضة . وربما لم تكن متكيفة كما ينبغي للحياة الاجتماعية .

٦- (واحدة من ذكرياتي القديمة ، ان لم تكن أقدمها ، حصل حدث عندما كنت في الثالثة والنصف من عمري . ذلك ان فتاة أجنبية كانت تعمل عند والدي كليهما ، اخذتنا انا وابنة عمي إلى سرداب عندنا في البيت وهناك أعطتنا شيئاً من شراب السايدر - عصير التفاح المعتق - تذوقناه فأحببناه كثيراً) . فكأن سابق ذكرياتها تقول بلسان حالها : انها لخبرة طريفة أن يكون عندنا سرداب ، وان تكون لدينا مخازن من هذا القبيل في طوابق ارضية من البيت . فهذه كانت بالنسبة لها رحلة إستكشاف . واذا كان لنا ان نتعجل الاستنتاج إستعجالاً ، فلنا أن نحدد واحداً من شيئين إثنيين : الأول ، لعل هذه الفتاة تميل إلى مواجهة الظروف الجديدة وانها شجاعة في توجيهها نحو الحياة ولعلها من ناحية أخرى ، كانت تعني ان هناك أناساً آخرين يتصفون بإرادات أقوى يستطيعون بها إغواء غيرهم ناحية الزيف والضلال . (بعد فترة وجيزة مرت على تناولنا شراب السايدر وجدت ساقي وقدمي لا تقويان على حملي . فادركت أنني إرتكبت خطأ) . فهي فتاة تريد أن تتعلم من الأخطاء . وانها قادرة على ان تطور ذاتها إلى ما هو أفضل . وهذه السمة Trait ، يمكن ان تميز مجمل حياتها كلها . فكأنها تقول في ذات نفسها : (أنا يمكن أن أخطي ، لكني سرعان ما أصحح وضع نفسي حالما أرى اني تنكبت عن السبيل السوي) . فاذا كان الأمر كذلك فإن هذا هو نمط جيد ، ونموذج يحتذى : انها فعالة ، وشجاعة ، تصحح من شأن نفسها قبل

فوات الآوان ، وانها دائماً ترنو إلى اسمى السبل في العيش و الحياة .

في كل ما مرّ بنا آنفاً من أمثلة ، أننا دربنا أنفسنا للكشف عن بعض الطبائع من خلال الحُدس و التعليل و التأويل ، وكنا نستهدي إلى استنتاجاتنا عن طريق النظر الى الشخصية ككل .

ولنا الان ان نلتفت إلى أمثلة مستمدة من الممارسة العيانية بحيث نستطيع أن نتبين من خلال تماسك الشخصية كلها ما تنم عنها تعابيرها وحرركاتها .

هذا رجل يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً ، جاءني إلى العيادة وهو يعاني من العصاب الحصري^(١٠) Anxiety Neurosis . كان يحس بالحصر و الضيق فقط حينما يكون بعيداً عن البيت . من حين لآخر كان مضطراً إلى أن يؤمّن لنفسه عملاً ، وكان ما ان يشرع بالعمل ، ويجلس إلى مكتبه حتي يبدأ بالتأوه و النشيج يتطور إلى بكاء طوال يومه في مكتب العمل ؛ فلا تتوقف حالته هذه حتى يقفل عائداً إلى المنزل مساءً ويجلس بجوار امه . ولما سألته عن أولى ذكرياته ، قال : (.... اذكر وانا في الرابعة من العمر ، كنت جالساً لصق النافذة في البيت وأنا اراقب الناس يعملون ، ويرحون ويحيئون ، وكان ذلك مما يبعث في نفسي المتعة إذ كنت مرتاحاً والناس يعملون) . لهذا أنطبع في صفحات ذهنه أن يرى الآخرين يعملون ، وان يخلد هو فقط الى الراحة والمراقبة . ترتب على هذا أن استقر في اعماق عقله ان الطريقة الوحيدة لكسب العيش هي أن يبقى يتلقى العون من غيره وان لا يقرب هو أي عمل . فكل همه ، اذن ، قد تركّز حول الملاحظة والمراقبة ليس الا . ولو أننا عاجناه بالعقاقير الطبية ، وخلاصات الغدد ، فلن نتوصل معه إلى نتيجة تذكر . وقد نصحته ان يجد لنفسه شغلة حرة ، وان يمارس فيها هوايته في النظر و التجول . وقد

استجاب لنصيحتي هذه إذ افتتح محلاً للفن ومن يومها عادت حالته إلى طبيعتها السوية .

وهذا شخص آخر يبلغ الثانية والثلاثين من العمر ، جاءني طالباً العلاج ، يقاسي من حبسة هستيرية^(١١) Hysterical Aphasia فما كان يطبق النطق بما يتجاوز عتبة الهمس . وقد استمرت هذه الحالة عنده مدة عامين . وقد بدأت لديه بعد أن انزلت قدمه بقشر موز فهوى على نافذة سيارة أجرة (تاكسي) كانت مارة هناك . على أثر ذلك أخذ يتقيأ لمدة يومين لازمه بعد ذلك صداع نصفي (الشقيقة) . لاشك انه حصل له ارتجاج في الدماغ ، ولكن ما دام هناك عدم تغير عضوي في الحنجرة ، فإن الارتجاج وحده لا يكفي لتفسير عدم قدرته على الكلام . استمر مدة ثمانية أسابيع وهو لا يقدر على الكلام . وكانت الحادثة التي تعرض لها معروضة أمام المحاكم ، ولم يبت بها بعد ، ولم يحسم امرها . وكان يعزو الحادث كله إلى خطأ وقع من سائق سيارة الأجرة ، وكان يطالب الشركة التي تمتلك تلك التاكسي بتعويض . كان بوسعنا ان نراه في موقف أفضل في دعواه تلك لو انه كان يعاني من عجز ظاهر . ولا حاجة بنا تدعونا إلى ان نسمه بعدم الأمانة ، لكنه في واقع الحال لم يكن لديه الحافز القوي ليحمله على الكلام بصوت عال . ولعله وجد حقاً صعوبة بالغة في الكلام بعد الصدمة النفسية التي تعرض لها إثر الحادث ، وربما وجد في قرارة نفسه انه ما من سبب يحمله على أن يغير من وضعه النفسي هذا .

عرض المريض نفسه على مختص بالحنجرة ، فوجده سالماً ولا يعاني من أي شيء . عندئذ سألته ان يحكي لي شيئاً من ذكرياته الاولى ، فذكر لنا الآتي : (اتذكر انني كنت مستلقياً على قفائي في المهد . المهد كان متديلاً بخطافين على مسندين متقابلين . واتذكر انني رأيت أحد الخطافين أفلت من مكانه . فسقط المهد وقد اصابني على أثر ذلك أذى شديد) . ما من

أحد يجب السقوط ، لكن هذا الرجل قد بالغ كثيراً في حدوثه وضخمه .
(فتحت الباب على اثر السقوط ، وجاءت أمي بسرعة وكانت هلعة
مذعور) . فهو قد حقق غاية : إذ أصبح في بؤرة اهتمام أمه وانتباهها
بسبب ما تعرض له من سقوط ، لكن هذه الذكرى هي في ذات الوقت
تأنيب . (لكن أمي لم تكلف نفسها كثيراً للعناية بي) . وهذا ينسحب
على القائه اللوم على سائق سيارة الأجرة . وهذا اسلوب في الحياة يتبعه
أولئك الذين يرمون بالمسؤولية دوماً على سواهم . وهذا النوع من السلوك
يصدر في الغالب عن النمط المدلل من الأطفال . أو الأطفال الذين يتقنون
إلى التدليل . وبالنسبة لهذا الرجل لا علاقة لسقوطه باحتباس كلامه . الا
انه ما كان يريد أن يتقبل ذلك أو يفهمه .

فالذاكرة تقوم بوظيفة بيولوجية ، وبوظيفة حافظة . تساعد الانسان
على الاستجابة الحالية و السلوك القائم في حاضر الفرد على ضوء تجاربه
الماضية . فالماضي موصول بالحاضر عن طريق الذاكرة . فهي تمثل عملية
تطور في حياة الانسان ، انها تبدأ بتخزين بعد ذلك الاستجابات المتعلمة
المكتسبة ، الاختيارية ، المعقدة . وعبر جميع هذه المراحل تحتزن في الذاكرة
الخبرات التي تمر بالانسان ، الطيب منها في حياته ، و المقبوح . وكل
انواع التجارب هذه تترك أثرها العميق ظاهراً في سلوك الانسان وتصرفاته
في الحياة . والأمثلة التي مرّ ذكرها في هذا الفصل تبرهن على صدق ما
نذهب اليه .

هوامش الفصل الرابع

- ١- جدر بضم الجيم المعطشة جمع مفردها جدار . (المترجم)
- ٢- موميوات جمع مفردها مومياء . (المترجم)
- ٣- العدمليات : مخلفات الآثار . (المترجم)
- ٤- الطرح ويفضل لغوياً استعمال كلمة : الإطراح ، ويراد بها من وجهة نظر التحليل النفسي ، العملية التي يلقي المريض فيها بمشاعره و أحاسيسه وأفكاره المكبوتة ، يلقي بذلك كله على معالجه . ففي هذه العملية يسقط المريض كل ما كان اختزنه من مكبوتات على معالجه . فيجعل معالجه يعايش معه سابق ظروفه . وكأن المعالج أمه أو أبوه أو أحد اخوته . ففي الطرح تفسيرات اسقاطية وجدانية . (المترجم)
- ٥- مثل عربي يؤدي المعنى تماماً . (المترجم)
- ٦- مثل عربي يؤدي الغرض الذي ذهب اليه المؤلف . (المترجم)
- ٧- المصادفة أفصح وأدق من (الصدفة) . (المترجم)
- ٨- مما يجدر ذكره والتأكيد عليه هو ان أخوف ما يخافه الطفل هو ذكر الموت ومنظر الجنازة . فذلك مما يملأ نفسه رعباً . (المترجم)
- ٩- ألجمة جمع ، ومفردها لجام ، وهو للخييل . (المترجم)

١٠- العصاب الحصري أو عصاب الحصر مرض نفسي أظهر اعراضه الضيق الذي لا يمكن رده إلى سبب معين .ومن مشكلاته ان ينفذ إلى كل كيان الشخصية فتفقد تماسكها .
(المترجم)

١١- الحبسة الهستيرية : احتباس الكلام أو العجز عنه بسبب اضطرابات تصيب المناطق الارتباطية . والحبسة اما ان تكون كلية أو جزئية ، وتحدث نتيجة تلف عضوي في الدماغ ، وربما نتيجة صدمة نفسية عنيفة .

١٢- ارتجاج المخ : فقدان الوعي ، لتلقي ضربة على الرأس ، قد يصحبه صدمة أو شلل مؤقت أو فقدان الذاكرة .
(المترجم)

الفصل الخامس

.... والأحلام معناها

كل إنسان يحلم . وما أندر الذين لا يحلمون . بيد أنهم قليلون أولئك الذين يفهمون ما لإحلامهم من مغزى . وان هذه الحالة من حالات شؤون حياة الانسان النفسية قد تبدو على جانب لا يستهان به من الطرافة و الغرابة في آن . وهنا يتجلى لنا نشاط فعال من النشاطات العامة التي يتسم بها العقل البشري . كانت الاحلام وما لبثت تشغل اهتمامات الانسان في حياته ، وانها دائماً محيرة له ، إذ هو يتوق إلى ادراك كنهها وما عسى ان ترمي اليه . فما أكثر الناس الذين يستقرئون أبداً ما وراء أحلامهم حين يحلمون . فهم يتلمسون آفاق مآتيها ويتطلعون الى استكناه ما تخفى وراءها من أهمية ومغزى . إنهم لا يكتفون بطواهرها ومرمها . بل أنهم مدفوعون من حيث يعون أو لا يعون ، إلى تدبر أسباب تسلسلها إلى حياتهم العقلية و النفسية ، وهم نيام : فهي اذن ظاهرة غريبة وخطيرة . واهتمام الإنسانية هذا باحلامها قد عبرت عنه بطرائقها المتفاوتة من أقدم عهودها على وجه هذا الكوكب . ورغم هذا كله ، فالناس ما برحوا يقومون بما يقومون به وهم في أحلامهم مستغرقون ، بل هم لا يدرون لماذا يحلمون . فالمسألة عندهم ضرب من الألفاظ المحيرة ، وإن تباينت التفسيرات و تفاوتت التأويلات بصدد الأحلام ، ومبلغ

علمي ، كما أرى ، أن ثمة نظريتين ^(١) تحاولان تفسير الأحلام ، وهما نظريتان تنطويان ، كما أظن ، على سمة الاحاطة و الصفة العلمية . و المدرستان اللتان تزعمان انهما اكثر احاطة بفهم الاحلام وتأويلها هما مدرسة التحليل النفسي الفرويدية ، ومدرسة علم النفس الفردي ^(٢) ، ومن بين هاتين المدرستين ، لعل المختصين بعلم النفس الفردي هم الأكثر تأهيلاً في دعواهم لانهم أجدر في تأويل الأحلام ، إذ يجعلون نفسياتهم ادنى إلى الذوق العام واقرب إلى المعنى المنشود ، فلا تعامش في تأويلاتهم ولا غباشة ^(٣) فيها .

المحاولات الأولى الرامية إلى تفسير الاحلام وفهمها ، لم تكن بطبيعة الحال ، ذات صبغة علمية كما هي عليه الآن ، غير ان هذا لا يعني أبداً انها محاولات لا تستحق التأمل و البحث ، فهي اذن ، محاولات يمكن ان تميّط اللثام في الأقل عن الكيفية التي كان ينظر بها الناس إلى احلامهم وكيف كانوا يعتبرونها . وهي في الوقت ذاته تكشف عن اتجاهاتهم إزاء احلامهم . الأحلام جزء لا يتجزأ من نشاط العقل الإبداعي . واذا ما وجدنا ما يتوقعه الناس من احلامهم وما يبحثون عنه في ثنائها ، فسنكون أقرب في هذه الحالة إلى استبانة الغرض الذي ترمي اليه الأحلام . وللوهلة الأولى من شروعا بتقصي حقائق الأحلام نجد أنفسنا تواءم وجهاً لوجه أمام حقيقة لافتة للنظر . وتلك الحقيقة هي : يبدو دائماً وكأنه من المسلمات بأن الأحلام تحمل دوماً في طياتها الإنباء عن المستقبل . فكأن المستقبل يحتويه ضمير الأحلام وهي به خفية . وما اكثر ما يعتقد الناس بأن في تضاعيف الحلم توجد هناك روح Spirit أو شيء منها ، وان الحلم لا يخلو من روح إله أو انفاس قادمة من عالم الأسلاف ، و الروح هذه الآتية من اجواز الغيب تتملك عقول أولئك الناس و تتحكم في مصيرهم فتؤثر عليهم و تستحوذ . وكثيراً ما كان أولئك الناس أيضاً يستمدون ما هو مضمّر في احلامهم للتغلب على ما يواجهون من صعوبات .

فمن وجهة نظر علمية ، تبدو لنا تلك الآراء ساذجة ومدعاة للسخرية . ومنذ الوقت الذي شرعت فيه في محاولاتي لحل مشكلة الأحلام ، كما أراها ، أتضح لي جلياً أن الانسان الذي يعرض شطراً من ليله حالماً يكون اسوأ حالاً في استطلاع طالعهِ من الشخص الذي يستيقظ صباحاً وهو متمالك قواه ومنتعش في نومه وممسكاً بزمام ملكاته^(٤) ، مما ينبئ به تفكيره وذكاءه وهو في حالة صحوة . بيد ان هذا لا ينبغي أن يصرفنا عن حقيقة تسالم عليها أبناء البشر عبر تقاليدهم : تلك هي اعتقادهم بقدرة الأحلام على الإخطار بالمستقبل ، ولعل هذا لا يجعل اعتقادهم كله يبدو وكأنه خزعبلات بل انه اعتقاد لا بد انه ينطوي على حقائق متواترة . فنحن إذا ما لاحظنا تلك التقاليد و المعتقدات من منظور واقعي صحيح ، فلا شك اننا واجدون فيها سر المفتاح الذي كان في يوم ما مفقوداً . إذ نجد علي التو ان الناس ، عبر العصور ، قد حسبوا أحلامهم هيأت لهم حلولاً لمشكلات قائمة في حياتهم . من هذا يصبح بوسعنا أن نخلص إلى أن غرض الفرد من حلمه هو أن ينشد دليلاً يهديه سواء السبيل إلى مستقبل يتبغيه ، انه يتلمس طريقه باتجاه حل لمعضلة تؤرقه . ولكن علينا أيضاً أن نتدبر أين يأمل أن يعثر على ضالته المطلوبة لحل تلك المشكلة . وان مشكلة يتم التوصل إلى حلها خلال الحلم لن تفضل بحال من الأحوال حل مشكلة يتم حلها بالتزوي والتدبر أثناء اليقظة .

ومن وجهة النظر الفرويدية نرى ثمة جهداً حقيقياً قد تم تقديمه يرمي إلى اعتبار الحلم ينطوي على معنى يفضي إلى فهمه فهماً علمياً . لكن هذا لا يدرأ عن التفسير الفرويدي للحلم تهمة ثابتة وهي أنه تفسير قد ابعد الحلم عن مجاله العلمي . فهو تفسير يزعم مثلاً ، ان هناك فجوة تفصل بين نشاط العقل خلال النهار ، وما تنشط فيه من احلام إبان الليل . فحسب التفسير الفرويدي تقام هوة بين الشعور واللاشعور ، وكأنهما شيئان

متناقضان في ساحتين متناحرتين ، وتصاغ للحلم في هذه الحالة قوانين خاصة تناهض تماماً قوانين التفكير العقلي الذي يسود أثناء الحياة اليومية . وحيثما صادفنا تناقضاً كهذا ، فما علينا الا ان نخلص إلى انه اتجاه ينافي نوااميس العقل العلمية . إذ ان التناقض في هذه الحالة لا نجده الا في الحالات العصائية . والاتجاه التناقضي في حياة الفرد لا وجود له الا بين الأشخاص العصابين . فالفرق مثلاً ، بين اليد اليمنى و اليسرى ، وبين المرأة و الرجل ، وبين الخفيف و الثقيل ، وبين الحار و البارد ، هذه ليست متناقضات ، كما يتوهم بعض الناس ، بل هي متغيرات . انها درجات رسمت على سأم . وتم ترتيبها على وفق اوجه المقاربة التي تفضي إلى تصور مثالي يتعارف عليه الناس للاطمئنان إلى احكامهم العقلية .

ثمّة نقطة نقص اخرى تلحظ في الاجابة الفرويدية ، حيثما يثار سؤال اساسي يتعلق بتفسير الاحلام ، وهو السؤال التالي على سبيل المثال : (ما هو غرض الأحلام ؟) أو عندما يطرأ سؤال كهذا : (من أجل أي شيء نحلم يا ترى ؟) . لعل جواب المحلل النفساني يتخذ الشكل التالي : (ان غرض الحلم هو لأشباع رغبات الفرد غير المتحققة ولأرضائها) . بيد ان وجهة النظر هذه لا يمكن ان تعني انها تفي بتفسير كل شيء . و للمرء هنا ان يتساءل : فاين هو الإشباع الذي يحققه الحلم في حالة توهان الحلم في ظلمات النفس ، أو عندما ينسى الفرد حلمه ، أو إذا لم يكن بوسعه فهم الحلم ؟ كل البشر يحلمون ولكن قليل عديدهم اولئك الذين يفهمون حقيقة أحلامهم . وهناك رأي آخر يذهب إلى ان الحالم يستمد من الحلم اللذة ^(٥) . ولنا في هذا الصدد ان نسأل : اية لذة يستمتع بها الحالم إذا كانت حياة الحلم ليلاً منفصلة عن واقع الحياة اليومية الحقيقية ؟ فالحالم في نومه في يقظته هو نفس الفرد : فلماذا ننظر اليه مجزئاً بدلاً من اعتبار شخصيته وحدة متكاملة ؟ ليس بالأمر المنكور ان هناك انماطاً من البشر يجدون إبهاجاً لأنفسهم وإرضاء الرغباتهم في زوايا الأحلام . لكن من هم

هؤلاء النمط من الناس ؟ انهم أولئك الذين كانوا مدللين أيام طفولتهم .
فالفرد الذي يكون من هذا النمط تلقاه دائماً يسأل ذاته : (كيف يتسنى
لي إرضاء رغباتي واشباع نزواتي ؟) . أو قد يسأل : (ما الذي عسى أن
تقدمه لي الحياة ؟) . فشخص من هذا النمط يجد الإشباع النفسي في عالم
أحلامه . لذلك يمكن القول بأن علم النفس الفرويدي دائم التأكيد دائماً
على موقف الشخص المدلل ، الذي يشعر بأن غرائزه لا ينبغي أن ينكر
عليها الإنطلاق . وأيا كان الأمر ، فإذا كان حقاً بمقدورنا أن نكتشف
غرض الحلم ومرماه ، فإنه ليتعين علينا في نفس الوقت أن نتيين أيضاً ما
هو الغرض الذي يتحقق من الحلم عندما نكون قد نسيناه فلا نتذكره ، أو
في حالة أننا نحلم ولكن لا نفقه من حلمنا شيئاً ولا ندرك مغزاه .

هذه كانت إحدى المشكلات الشائكة أمامي حينما شرعت أحاول ،
منذ ربع قرن من الزمان خلا ، أن أجد معنى للأحلام يخلد إليه المرء
مطمئناً . أستطيع الآن أن أدرك بأن الحلم ليس شيئاً مناقضاً للحياة
الواعية ؛ وإنني لأقدر بأنه دائماً في نفس سياق ديناميات الحياة وتعابيرها
الأخرى . فإذا كنا ، خلال النهار منشغلين بالجد المضي في سبيل تحقيق
التفوق والسمو كههدف نرنو إليه ، فكذلك نكون أثناء نومنا ليلاً منشغلين
بذات الهدف ^(٦) . فالحلم من هذا المنظور يجب أن يكون محصلة أسلوب
الحياة وغطها المستراد ، وإنه يجب في الوقت ذاته أن يبني وأن يعزز أسلوب
الحياة وفق أقباس الوجدان الإنساني .

ينبغي أن نتحرى غرض الأحلام في ما يتبقى من مشاعر كانت قد
أيقظتها الأحلام من رقدتها . ما الحلم إلا الأداة ، وإن هو إلا الوسيلة ،
التي تستثير الأحاسيس والمشاعر . ولنا بعد ، أن ننقب في ثناياها عن
مغزاه وما عسى أن تخفي وراءها . فهدف الحلم في هذه الحالة ، إذن ،
إنما نتيينه مما يتركه وراءه من كوامن المشاعر .

والمشاعر التي يستحدثها المرء في ذهنه أو التي تزدحم في مجال عقله اللجب ، لا بد أن تكون في سياق أسلوبه في الحياة ، وأن تكون منسجمة مع توجهه الشعوري في الأصل . وأن الاختلاف بين فكرة الحلم Dream thought وفكرة الحياة الواعية للإنسان ، ليس اختلافاً مطلقاً ، وليس الفرق بينهما فرقاً شاسعاً ؛ فليس ثمة حد جامد يفصل بينهما . ولنضع هذا الفرق بينهما بصياغة الفاظ أوجز ، فنقول : في حالة الحلم أكثر العلاقات الموجودة في دنيا الواقع تستبعد وتتأثر . لكن هذا لا يعني أننا في حالة الحلم نكون قد انفصلنا عن الواقع أبداً . فنحن لا ننفك نكون على تماس مع الواقع ونحن نائمون . فإذا ما كنا مضطربين في حياتنا بكثرة مشاكلنا ، نكون كذلك مضطربين في حالة نومنا . فنبقى ، ونحن نائمون ، على أتم اتصال بالعالم من حولنا . فالتواصل في حالة النوم قائم مع العالم الخارجي . غير أن الفرق هو في حالة نومنا لا تكون أدراكاتنا الحسية غائبة، وإنما هي فقط أقل فعالية . فنحن عند الحلم وفي حالته ، إنما نحن وحدنا في جو خاص بنا . والمتطلبات الاجتماعية ، ونحن في أحلامنا مستغرقون ، ليست مطلوبة منا بصورة عاجلة ولا نحن بها مطالبون . وفي أحلامنا ليس مفروضاً علينا أن تكون استجاباتنا للمواقف المحيطة بنا ، إستجابات يجب أن تتسم بالصدق والأمانة والشرف كما هي في حالة تعاملنا في حياتنا الواعية . فحياتنا النائمة الحاملة شيء وحياتنا الواعية اليقظة شيء آخر : بيد أننا ونحن واعون ، وإننا ونحن حاملون ، إنما نحن نحن وليس شخص سوانا . فالفرد في حالة ، وعيه وصحوه وفي حالة نومه وحلمه إنما هو هو لم يتغير منه شيء .

فنومنا ينجو من الاضطراب فقط عندما ننام غير متوترين ومشاكلنا كانت إبان النهار قد حلت ونحن من ناحيتها لسنا وجلين^(٧) . فإذا كان هناك ما يجلب إلى النوم الهادي الساكن نوعاً من الاضطراب ، فذلك معناه إجتلاب للحلم . وبمقدرونا أن نخلص إلى أننا نحلم فقط في حالة

تأكدنا من عدم حل مشاكلنا : فقط في حالة إحساسنا بأن الواقع يضغط علينا حتى عند نومنا وأن هذا الواقع يزيد من كثرة مصاعبه علينا . فمهمة الحلم أو وظيفته هي هذه : أن نكون في منامنا وجهاً لوجه مع مشكلاتنا ونلتمس لها حلاً . والآن بوسعنا أن نرى بأي الأساليب تهاجم عقولنا في حالة تأكدنا من عدم حل مشاكلنا: فقط في حالة إحساسنا بأن الواقع يضغط علينا حتى عند نومنا وأن هذا الواقع يزيد من كثرة مصاعبه علينا . فمهمة الحلم أو وظيفته هي هذه : أن نكون في منامنا وجهاً لوجه مع مشكلاتنا ونلتمس لها حلاً . والآن بوسعنا أن نرى بأي الأساليب تهاجم عقولنا مشكلاتنا أثناء نومنا . فخلال النوم نحن لا نواجه الموقف الحياتي كله ، لذا تكون هناك بعض المشكلات العالقة ، فيسهل على العقل عندئذ التصدي لها ، مما يقتضي شيئاً قليلاً من التكيف وليس بالكثير أثناء النوم . لهذا فالحلم يدعم أسلوب الحياة . ولكن السؤال الآن: لماذا يتطلب أسلوب الحياة دعماً وتعزيزاً ؟ يستبان من ذلك أن غرض الأحلام هو حماية أسلوب الحياة ودعمه ضد المتطلبات الضاغطة المرسلّة على البديهة : المتطلبات العفوية غير الحسّية.

قد يبدو في هذا ما يناقض منطق الحياة الواعية ، بيد أنه لدى التمعّن والتمحيص لا يرى المرء فيه ما يتناقض ومنطق الحياة أبداً . ومرد ذلك إلى أننا نستطيع أن نستجيش المشاعر في حياتنا الواعية ونحركها تماماً كما لو تحركت تلك المشاعر من مكانها ونحن حاملون . فإذا ما واجه إمرؤ ما معضلة معينة في حياته وحاول المراوغة في مواجهتها ، فإنه يلتبس بمختلف المبررات ليجعل منها مسألة تبعث على الرضا حسب قناعته هو . وما أكثر الذين يرغبون في دنيا الواقع في تحقيق رغبات ضيقة خاصة بهم ولا يريدون بأي شكل أن يسهموا في شيء ينفع مجتمعاتهم والحياة . وهذا النمط من الأفراد يملؤون عقولهم بصور يتصورونها حافلة بمنافع تخصهم وحدهم . وتصورهم هذا يزين لهم قناعات تجعلهم يظنون أنهم يحسنون صنعا .

الأحلام تأتي مناقضة للفطرة السليمة Commom Sense. الفطرة السليمة تتركز إلى الحكم الحصيف ، بينما الأحلام ، تعد في بعض جوانبها، نوعاً من الخداع ، وضرباً من ضروب التسمم الذاتي Auto-intoxication : أي تعد نوعاً من أنواع التلويح الذاتي Self-hypnosis^(٨) . وجلّ غرض الحلم هو أن يستثير فينا المزاج الذي نواجه به الموقف المحدد. فعلياً أن نكون قادرين على أن نلمح فيه نفس الشخصية وتماها : الشخصية التي نراها على حقيقتها في واقع الحياة اليومية ، لكن الشخصية التي نتملاها في الحلم هي تلك المصنوعة في معمل العقل . ويتوقف الأمر على المواد والوسائل التي يستخدمها.

ولكن : فماذا نجد ؟

إننا واجدون ، لأول وهلة ، أثباجاً من المتراكمات ، والواناً من الصور المليئة بالاحداث ، والخواطر ، والمناظر ، والذكريات . فعندما يتملى المرء ماضيه تتداعى على ذهنه صور شتى ومقتطفات منها ما يدعو إلى الاستدكار الأتراح ، ومنها ما يبعث على الإنسراح . ولكن مع هذا كله يظل هدفه الذي يتوخاه هو المتحكم بسيرورة ذواكره. وهذا في الأغلب هو ما يحصل في الحلم : ففي الحلم يفرض أسلوب الحياة مساره الذي يريد.

فما هي ، يا ترى ، المصادر الأخرى التي يحتاج منها الحلم مادته ؟ منذ أقدم الأيام وحتى وقتنا الذي نحن فيه^(٩) ، كان فرويد يؤكد بشكل خاص على أن الأحلام إنما يتم بناؤها أساساً من الاستعارات والمجازات ، والتوريات ، والرموز . فلا عجب من أن يعلق أحد النفسانيين قائلاً : (فنحن ، إذن ، في أحلامنا شعراء) . والسؤال الآن : لماذا لا تتكلم الأحلام ببساطة وبصورة مباشرة دونما حاجة إلى لغة التورية ، والمجاز والرمز ؟ الأمر يعزى في هذه الحالة ، إلى أن الحلم يبتغي الروغان .

فيتوخى التعمية ولا يقوى على الثبات أمام منطق الفطرة السليمة .
فالآحلام تستطيع أن تستجمع عدة أشياء في شيء واحد ، وهي يمكنها أن
تقول شيئين في وقت واحد : ولعل أحد الشئين يكون زائفاً . ولعل الحلم
يصحح لدى المرء سلوكاً أو موقفاً : فكأن الحلم يخاطب صاحبه : لا
تتصرف كالطفل . إحذر التهور . أنتبه : فكل شيء وثمنه ^(١٠) .

الإستعارة والجاز من الوسائل الرائعة في اللغة ، ومن أدواتها البديعة
المتعة : ولكن باستخدامنا إيّاها وإغراقنا في لججها نكون دائماً قد
خدعنا أنفسنا وضللنا السبيل المباشر إلى القول ^(١١) . فحينما يصف
هوميروس جند الأغريق ، مثلاً ، وهم يزحفون فوق حقول الأعداء ،
بأنهم أسود ، فانه ليقدم لنا صورة عقلية فخمة ومهية . ولكن هل لنا أن
نصدق حقاً ما كان يرمي إليه بقوله وهو يصف اولئك الجند المساكين وهم
يزحفون مكدودين مضطربين وهم يتصببون عرقاً وملابسهم ملطخة
بالوساخة . إننا عندما نرجع إلى واقع تفكيرنا لا نراهم أسوداً بالفعل ،
كما وصفهم هو . إنهم أناس مسخرون بالكاد يلتقطون أنفاسهم ، وهم
من الإعياء منهكون . لا شك أن الاستعارة إنما تستخدم لأجمال للتجميل
وإنها تستعمل للتصور والخيال . لذا يحق لنا أن نصرّ على أن الاستعارة
والرمز إذا ما استخدمتا على غير وجهيهما يكونان خطراً دائماً لاسيما في
أيدي الأفراد الذين يسيئون فهم ناموس الحياة .

ففي الأحلام إستلفات وأحياناً صرف عن واقع مشكلات .
ولنضرب مثلاً على ذلك طالب علم يرى نفسه من امتحاناته قاب قوسين .
فالمسألة هنا واضحة ومباشرة وصریحة ، وما عليه إلا أن يواجهها بحزم
وصدق وشجاعة وبفطرة سليمة ورأي حصيف . غير انه إذا كان قد
إعتاد على أسلوب في الحياة قوامه المراوغة والتهرب ، فإنه سيحلم دون
شك فيرى نفسه انه يقاتل في ساحة حرب . إنه في حلمه هذا يصور لنفسه

المشكلة الواضحة هذه في صورة استعارة عقلية مضخمة ، فيجد بذلك لنفسه التبرير بأنه خائف من الإمتحان فيهرب منه بدلاً من ملاقاته بإطمئنان الطالب الواثق المطمئن . وربما يحلم فيرى نفسه كأنه واقف على شفا حفرة لا قرار لها فيرتدّ على عقبه ويولي هارباً خوفاً من السقوط فيها. فيروح في حياته الواعية يلتمس لذاته في ذاته مشاعر يستعين بها على إجتباب الإمتحان ، وللهرب منه ، فيخدع نفسه بالربط بين الإمتحان والهوة السحيقة وهي الحفرة الفاغرة فاها التي ولأها في المنام دُبْرَة . ولنتمثل هنا أيضاً بموقف طالب آخر أكثر شجاعة وإنه يتطلع إلى مستقبل يتمثله في ذهنه ، فيكاد وكأنه يلمح قريباً . يحلم هذا الطالب فيرى نفسه كأنه واقف على قمة جبل عال يرنو من فوقها إلى ما يحيط به من مروج ومن آفاق فساح . يستيقظ صباح اليوم التالي وهو مسرور وكله نشاط وحيوية . فيمضي إلى إمتحاناته وكله ثقة بذاته ، لأنه عازم على إتمام مهماته الدراسية ليشق سبيله فيما هو آتٍ من مستقبل سبق أن رسمه لنفسه . فصورة الحلم إذن إنما هي تبسيط لموقفه . وإنه بشجاعته التي يحدث بها نفسه إبان النهار أرتة في منامه أنه يتمكن كيف يقلل من شأن الصعاب فيراها قليلة . لذا فهو يمضي واثقاً في طريق الفوز بالنجاح . فلم يجعل من الحلم مسألة تشغل عقله كله ، فيفسره على هواه فيوحي لنفسه بأن هذا الحلم خدعة ، بل رأى فيه تشجيعاً فحزم أمره وأخذ للموقف أهبة ، فأستورى زند الأمل لذا إتجه بقوة صوب العمل.

لدينا نحن البشر كل الإمكانيات والوسائل والأدوات الكامنة مسبقاً في عقولنا ، ومهمتها هي بذل جهدها لتحكّم سيروء أسلوب الحياة ، ولتثبته ، ولتعززه ، وإحدى الوسائل المهمة هذه في حياتنا هي القدرة Ability على إثارة المشاعر فينا وإستثارة أحاسيسنا . وإننا لمنشغلون بهذا ليل نهار ، ولكنه أكثر ما يأتي وضوحاً ، ربما ، إبان الليل .

ولي أن أسوق هنا مثلاً مصدره خبرتي العملية . كنت أثناء الحرب أعمل رئيساً لمستشفى يعنى بالجنود العصبيين . وكنت عندما أقابل الجنود فأتبعن أن بعضهم حالاتهم تستدعي بأن اوكل إليهم مهمات إدارية تعفيهم من المهمات القتالية . وبهذا كنت أقلل بالفعل كثيراً من توتراتهم ومما كان يخفف كثيراً من معاناتهم وغصابتهم^(١٢) . وكانت هذه طريقي ، ولكني كنت في حالات صراع مع نفسي ، ذلك لأنني أروم التخفيف من معاناة كثير من هؤلاء الجنود ، غير أن كل توصياتي لابد لها من أن تعرض على مرجع عسكري أعلى . وفي إحدى المرات جاءني جندي وحينما قابلته وجدته يتمتع بصحة جيدة لكن حالته تستدعي ، بعض الشيء ، نوعاً من المداواة . وكيفما قلت الأمر على وجوهه وجدت أنه يمكن أن ينفع في الجبهة ، لكن حالته ستتردى بعد ذلك بسرعة . وقد حكى لي قصته الحياتية وملخصها أنه وحيد أمه وأبيه وأنه طالب جامعي ، وأنه يعمل جزءاً من الوقت ليعيلهما . فقررت في قرارة نفسي أن أقترح على المرجع العسكري ضمه إلى صفوف الحرس بدلاً من إرساله إلى الجبهة . وكان هذا الاقتراح الذي لا يزال آنذاك قائماً فقط في عقلي . وإنه إقتراح لو نُفذ فإن هذا الجندي سيرسل بعد فترة وجيزة إلى الجبهة . فكنت في صراع مع نفسي محتدم . فحلمت في تلك الليلة رأيت نفسي في الحلم أنني مجرم قاتل . وكنت أدور في أزقة ضيقة مظلمة أبحث عن الضحية التي قتلتها . وكنت اليوم نفسي على فعلتها الشنعاء تلك . وكنت أراني في الحلم أتوقف أحياناً قليلاً وأنا أتصب عرقاً و ياله من حلم مفزع لا يُنسى .

استيقظت مرعوباً من حلمي ذاك رحت أسأل نفسي : (من ذا الذي قتلته في حلمي الذي رأيت ؟) عندئذ خطر على بالي أنه : (إذا أنا لم أعط لهذا الجندي الشاب فرصة العمل في الأشغال الإدارية ، فإنه سيرسل عما قليل إلى الجبهة فيقتل جراء حمله البندقية ، وأكون آنئذ أنا القاتل بالفعل) . لذلك قررت ، وأياً كانت ردود فعل الجهات العسكرية

العليا ، أن أخلص هذا الشاب من مهمة عسيرة قد تضره و لا تنفع في النهاية أحداً . ضربت هذا المثل لأبين كيف تستثار فينا المشاعر وكيف توظف فينا فينا رواقد الأحاسيس فتحتدم في ما بينها في حرب ساحتها ميدان عقولنا .

كثير من الناس قد خبروا في أحلامهم أنهم وجدوا أنفسهم يخلقون طائرين . المفتاح إلى مثل هذه الأحلام يكمن ، كما يكمن في غيرها ، في المشاعر المستثارة لديهم والتي تكون في الغالب قابضة في طوايا نفوسهم . تأتي تلك المشاعر ومن ثم تتلاشى ، مخلفة وراءها مزاجاً تملكه البهجة الحلقة بأجنحة من النزوات ، ومحمولة على أشربة من البدوات . إنها تقود من أسفل إلى عل . فتصور للمرء الحالم تذليل الصعاب وتريه هدف التفوق قريب المنال ، فتدفع المرء إلى الحماس وتحقيق طموحه ، وتهمس في لا وعيه النائم : أن إمض ولا تتردد . فأحلامه هذه تنطوي على التشجيع ، كما تنطوي على التحذير . وفي هذا مكمن الفوارق الفردية في كل من الإقدام والإحجام . ولتجارب الحياة الواعية القدح العللى في هذا المضمار .

يرى بعض الناس في أحلامهم أنهم قد أصيبوا بالشلل ، أو أنهم كانوا يهمون بركون القطار لكنه في آخر لحظة قد فاتهم ولم يلحقوا به ، فكأن الواحد من هؤلاء يقول في أعماق نفسه : (سأكون في غاية الغبطة إذا مرّت هذه المشكلة على ما يرام ولكن دون أن تتطلب جهداً أبذله فيها من جانبي . ولكي أتفادها عليّ أن أراوغ فيها . يجب أن أتأخر في حضور مناقشتها أو مستلزماتها ، بحيث لا أواجه بمقتضياتها . يتعين عليّ أن أدع قطار الزمن المقتضي لها يمضي) . نجد أحياناً كثيراً من الأفراد يحلمون بالامتحانات . فبعضهم بندهش من أن يؤدي إمتحاناً في وقت متأخر من حياته ، وبعضهم يعجب من أن يفرض عليه إمتحان كان قد نجح فيه منذ

زمن خلا. لذلك فإن ترجمة الحلم وتفسيره بالنسبة لبعض الأفراد كأنه يخاطب الواحد منهم : (إنك لست مؤهلاً ولا مستعداً لمواجهة المشكلة التي أنت فيها الآن) . وبالنسبة للفريق الآخر منهم فكأن الحلم يخاطب الفرد الواحد منهم بقوله : (إنك قد اجتزت هذا الإمتحان من قبل ، وأنت ستجتاز هذا الإختبار نفسه مرة أخرى في الوقت الواهن) . فالرموز عند هذا الفرد لا تكون هي نفسها لدى الفرد الآخر . إذ أن ما ينبغي تأمله بشكل أساسي في الحلم هو بواقي المزاج وانساقها مع ما ينهجه الفرد من أسلوب في الحياة .

ولقد يحسن أن أسوق مثلاً يتعلق بمريضه بالعصاب عمرها (٣٢) عاماً جاءني للعلاج . كانت الثانية في الترتيب بين إخوتها . وكالمعتاد في الغالب فإن الطفل الثاني يكون ذا طموح عريض . كانت أمانيتها دائماً تحذوها الى أن تكون الأولى والتميزة في كل شيء وأن تحل مشكلاتها بنفسها دون أن تتعرض إلى تعنيف من أحد . كانت تعاني من إنهايار عصبي عندما جاءت إليّ للعلاج . لكن ما أسباب علتها مؤخراً ؟ كانت قد أحبت شخصاً متزوجاً ذا أسرة يعمل في الأعمال الحرة . وعدها بالزواج ولكنه لم يستطع أن يحصل على إذن بطلاق زوجته . أضف إلى هذا أنه قد إنهارت تجارتها فأصبح لا يستطيع الانفاق حتى على نفسه تقريباً . هذا الأمر أذهلها . فحلمت قبيل مجيئها إلى إذ رأت في المنام أنها أجرت شقتها إلى أحد الأشخاص ، لكن هذا الشخص المستأجر أفلس بعد يومين من تحوله إلى الشقة ولم يستطع تسديد الإيجار إليها ، لذلك اضطرت ، لقاء عجزه عن التسديد ، أن تخرجه من الشقة . على ضوء هذه الحقائق ، فما التفسير ؟

نرى لأول وهلة أن حلمها هذا علاقة بمشكلاتها التي هي فيها كما سلف . فهي وجدت نفسها في واقعها مرتبطة عاطفياً برجل أضحى فقيراً

بعد أن كان ميسوراً . فأخذت تراجع نفسها : هل تتزوج من شخص لا يحقق لها طموحها . أخذت تتنازعها الأهواء . فمرضت لتخلص من صراعها . وحلمت لترى اين هي . فالحلم جاء ليستثير لديها مشاعر تكرّرها بالزواج فكان حلمها يحذرهما ويقول لها : حدي من طموحك.

من تقنيات علم النفس الفردي أنه يسعى دائماً إلى أن يتبين أفضل العلاج ، مع زيادة ثقة الفرد بنفسه ورفع معنوياته وشحن شجاعته ليتمكن بذاته من مواجهة مشكلاته في الحياة . فهو ، أيضاً ، علم يَمَكِّننا من أن ندرك أن الحلم أحياناً يغير مجرى أساليبه ويعزز مقدار صلابة إتجاهات المرء إزاء مشكلاته . لذلك فإن طبيعة الأحلام بالنسبة للأشخاص الذين يعانون من أمراض نفسية تتخذ أحلامهم مسارات تتساقط وطبيعة أمراضهم.

وهذه قصة فتاة عمرها (٢٤) سنة ، تعيش وحدها ، وتقوم بأعمال سكرتارية ، تشكو من أن رئيسها في العمل شخص لا يطاق ، وأنه دائماً يضطهدها . وتحس بأنها لا تستطيع أن تكون صداقات ، وإذا حدث أن كوّنت صداقة فلا تقدر أن تحافظ عليها . ومن خبرتي أستطيع القول بأن الشخص الذي لا يقدر على المحافظة على الصداقة إنه يفعل ذلك لأنه شخص يرغب في قرارة نفسه أن يسيطر عليهم ويفرض هيمنته عليهم . فهو مدفوع نحوهم لا بدافع حب تكوين العلاقات الإنسانية المتوازنة ، بل بدافع حب الهيمنة ولكنه بذلك لا يشعر ولا يدري^(١٣) ، وأن الفرد من هذا النوع يكون هدفه فرض تفوقه بأي ثمن ، وهذا يصدق على الجنسين . ولعل رئيس هذه الفتاة لديه نفس النزعة أيضاً . وحينما تصطدم النزعتان تستخدم المشاكل لأن كل طرف يريد أن يكون هو المهيمن ، تحدوه نزعة لا شعورية حادة . فهذه الفتاة ذات وجه جذاب وهي السابعة بين أخواتها وأخوتها . وكانت مدللة ، وكانت تتمنى لو أنها خلقت ولداً . لذا كان أهلها يلاحظونها فينادونها (توم) ، وهو اسم تحب (دلح) يقال في الغالب

للصبيان ، وبه يسميهم أهلوهـم . فلما نهـدت وأصبحت قباء^(١٤) ، أرادت أن تسود الآخرين بجـماها وبصبوتها المكبوتة لأن تكون كالرجال . لهذا راحت إرادتها تصطدم بإرادات الآخرين . وما أكثر ما يحصل هذا لدى النساء ! فكانت هذه الفتاة تصبو إلى أن تخضع غيرها ولا سيما الرجال منهم ، بأنوثتها وجـمالها وبكـامن نزعتها المتطلعة إلى الذكور ، بيد أن الواقع لم يسلس لها القياد .

لذلك كانت ترى تلك الفتاة أحلاماً تجـد فيها نفسها في عراق وكرّ وفرّ . وما أحلامها تلك إلا تعبير عن صراع قائـم في قرارة نفسها : بين واقعها الأنثوي الذي لا ترضاه ورغبتها الدفينة النزاعة إلى الذكـورة وهذا ما كانت تتوق إليه وتتمناه .

فالأحلام من هذه المثابة يمكن إعتبارها ، عبر الزمان ، بمثابة رأس المال القصصي الفكري المخزون ، وإنها لا يمكن إنكار مكانتها في حياة الإنسان . فهي تضع في مجال إنتباهنا أشياء كنا قد أغفلناها في واقع حياتنا الواعية . وهي ، من ثم ، مرايا تعكس إتجاهاتنا ، وربما أنجازاتنا . وهي ، بعد ، قد تكون رسالة وجود ذاتية ، يمكن أن تنبـئ عن المصدر الخفي في دواخلنا فتدلنا عليه . فالأحلام نمط من أنماط سلوكنا نحن البشر .

هوامش الفصل الخامس

- ١ - كان هذا الكلام قبل إختلاف أدلر مع فرويد وانشقاقه عليه.
(المترجم)
- ٢ - أدلر دائماً يؤكد على أن علم النفس الفردي أقدر على الغوص إلى أعماق الفرد وإستيعابه من داخله .
(المترجم)
- ٣ - تعامش عن الأمر ، تغافل ، وكذلك بالسين فيقال تقامس بنفس تعامش ، واللفظة متداولة ، ومنه العمش وهو ما يصيب العين من آفة أو كلال.
(المترجم)
- ٤ - وجهة النظره هذه ينفرد بها أدلر وحده . فهناك الآن نظريات قي الأحلام كثيرة ، من بينها النظرية الإنبائية ، وهي تنبيء المرء مقدماً بأمر ما ، يخصه أو يخص محيطه ، ولنا في حلم يوسف عليه السلام عبرة.
(المترجم)
- ٥ - الإشارة هنا يريد بها أدلر وجهة النظر الفرويدية أيضاً .
(المترجم)
- ٦ - يلاحظ أن ثمة تحولاً تدريجياً في إتجاهات أدلر إزاء الأحلام . فهو بدأ ينظر إليها نظرة تشكك ، لكنه تحول إلى النزعة الايجابية بشأنها ، ولا بأس في ذلك ، فهذا شأن العالم المتجدد.
(المترجم)
- ٧ - مثل حياة الإنسان كالمثل السائر : (الحرب في الحياة سجال

وعثراتها لا تقال) . (المترجم)

٨- أراء أدلر هذه بشأن الإشارة إلى أنه لا ينفي الأحلام وأهميتها، لكن له منها موقفاً خاصاً ينظره في علم النفس الفردي . ومن آراء العلماء كافة تولدت عدة نظريات في الأحلام الآن .

(المترجم)

٩- المقصود الزمن الذي عاش فيه أدلر نفسه . (المترجم)

١٠- مثل عربي يؤدي تماماً ما قصد إليه المؤلف . والمثل المذكور في: كتاب خاص الخاص ، للثعالبي. (المترجم)

١١- يريد أدلر القول أن لغة العلم (لا تختمل كثيراً) المحسنات البديعية والأدوات البلاغية . (المترجم)

١٢- عصابات (بضم العين) وأعصبة جمع عُصاب وهو المرض النفسي المعروف. (المترجم)

١٣- تفسير أدلر لهذا لا يخلو من مصداقية وحقيقة علمية ، ولكنه فقط يعبر عن وجهة نظره هو : ووجهة نظر أدلر تقول بأرادة التفوق في الحياة. (المترجم)

١٤- نهدت : إرتفع نهداها ، وأصبحت قباء إرتفع صدرها نضجاً. (المترجم)

الفصل السادس

الجريمة ودراء مخاطرها

من خلال علم النفس الفردي ، يتسنى لنا أن نفهم على نحو أوفى مختلف الأنماط التي يمكن أن تكون عليها الكائنات البشرية ، ويجدر بنا في المال ألا نسرف في الظن بأن الكائنات البشرية هذه التي نتكلم عنها تختلف فيما بينها إختلافاً يباعد كثيراً بين طبائعها . ذلك لأننا نجد ، مثلاً ، أن النقص المائل في سلوك المجرمين ، هو نفس النقص الذي ينعكس من حيث النوع في تصرف الأطفال المشكلين ، وهو نفس النقص الحاصل في سلوك الأفراد الآخرين من الناس العصائين Neurotics ، وفي سلوك سائر الذهانيين Psychotics ، وفي نزعة الإنتحاريين Suicides (الأفراد الذين يقدمون على الانتحار تخلصاً من الحياة) ، في رغبات المدمنين Drunkards ، وفي ميول المنحرفين الشاذين جنسياً Sexual Perverts . فهذه الأنماط من الناس يفشل أفرادها في إرساء أقدامهم على المسار السليم من الحياة ؛ لذلك فهم كثيراً ما يهوون في مهاوي الشطط كل على وفق ما ركب في تكوينه النفسي والعقلي والفلسجي : أنهم أناس يعجزون عن مواجهة مشكلات الحياة . فهم يختلفون في مسارات إخفاقاتهم ، لكنهم من حيث الفشل والتدني سواسية . فالنتيجة هي أن كل فريق منهم يخفق في التعامل مع اهتمامات الحياة الاجتماعية ووظائفها

ومستلزماتها . لذلك لا يلحظ المرء أدنى إهتمام ييدر منهم ازاء أي شخص ممن يحيطون بهم ، فكأنهم عن غيرهم في حالة إغتراب . ومع هذا فحن لا نتبينهم بسهولة الا بعد ان يظهر على سلوكهم ما يدلنا عليهم . و الأمر يصدق حتى على الأسوياء الذين لا نستدل عليهم الا بعد أن يبرزوا في مجالات التعاون الاجتماعي البناء . لذلك فان المجرمين انما نسهم بسمه الاجرام و الإخفاق في التكيف حسب الدرجة الحرجة التي تظهر في سلوكهم فتجعلهم موصوفين بها سلوكياً .

ثمة نقطة أخرى ، تقتضينا الضرورة الالتفات اليها من أجل تفهم واقع المجرمين ، لكن هذه النقطة ، وبصرف النظر عن العواطف ، تدعونا الى أن ننظر الى هؤلاء البشر من هذا النوع ، انهم بشر مثلنا لا يختلفون عنا في شيء سوى أنهم ضلوا سواء السبيل لأسباب تحكمت في بنيانهم النفسي و العقلي . فحن - البشر - جميعاً نصلو الى التغلب على المشكلات و المتاعب . فكلنا ، بلا استثناء ، نكافح من أجل بلوغ هدف يمكننا فيما بعد من إحراز مكانة تجعلنا نشعر ، عند تحقيقها ، أقوىاء في هذه الحياة و اننا متفوقون ، و أننا متكاملون . وكان جون ديوي^(١) J. Dewey دائماً يشير الى هذا لذلك أسماه : الكفاح من أجل الظفر بالأمان . فهي تسمية جد ملائمة . وهو ميل من صلب نخيزة^(٢) الانسان يطلق عليه آخرون : كفاح من أجل المحافظة على الذات : - Self Preservation . وأياً ما كان النعت الذي نعت به هذا الميل ، فلا نعدو حقيقة شاخصة : تلك هي أننا نجد هذا المنسرب دائم التغلغل في أبعاد أعماق الكائن البشري - اعني بذلك : الكفاح الرامي الى الارتقاء بالانسان من وهدة النقص Inferiority الى تلة التفوق Superiority ، ومن ثم الأخذ بناصره من حمأة الاندحار الى ذروة الإنتصار ، ومن موقع وضع الى موقف رفيع . وكل هذا تتأثل جذوره في بواكير طفولتنا ، ومن هناك يتوالى تباعاً حتى نهاية العمر من الحياة .

وهنا نقطة أرغب تأكيدها بقوة ، تلك هي أن ثمة أناساً يعتقدون عكس ما المعنا اليه من قبل . والذين أعنيهم في هذا السياق هم أولئك الذين ينظرون الى المجرمين بوصفهم شواذا عن الجنس البشري ، يعتبرونهم وكأنهم ليسوا بشراً البتة . فبعض العلماء مثلاً ، يؤكدون ان المجرمين هم أناس من ضعاف العقول Feeble - Minded . وغير هؤلاء آخرون يؤكدون تأكيداً عاماً على مسألة الوراثة Heredity عند المجرمين ، اذ يرى هذا الفريق من العلماء ان المجرم انسان سمحت الطبيعة بولادته خطأً ، لذلك فهو لا يتورع عن اقتراف الجريمة . وغير هؤلاء وأولئك ، ثمة نفر من العلماء من يظن ان الجريمة شيء تنبته البيئة بشكل ثابت فتصبح كأنها في دم الانسان مركوزة فلا فكاك له منها . واني من جهتي أرى أن هناك من الدلائل الشيء الكثير يحملني على الاعتقاد بما يناقض تلك الآراء كافة . فاذا كان هناك من يظن انه في حالة تقبلنا أياهم انما نحرم أنفسنا من احتمال معالجة مشكلة الجريمة ، فإنه لظن لا يخلو من أوهام . فنحن مدركون من خلال وحدات التاريخ ككل ، ان الجريمة كارثة لا مباحة بشأنها ؛ وكلنا يساورنا الآن القلق بصدد العمل على إستئصال شأفتها ، ولا يحق لنا ان نقنع أنفسنا بإدارة ظهورنا الى المشكلة ووضعها على الرف ونحن نقول : فماذا يمكننا أن نعمل ازاء مشكلة متأصلة في (الوراثة ، انها الوراثة ، لذا ليس بوسعنا أن نعمل شيئاً بشأنها) !

فالحقيقة التي لا مرء فيها هي أن ليس ثمة في البيئة فرض اضطراري ، ولا الوراثة تحتم مثل هذا الاضطراب الالزامي . فما أكثر ما نرى اطفالاً يتحدرون من ذات الأسرة الواحدة ، وفي نفس ظروف البيئة الواحدة ، ومع ذلك فأنهم يشبون ويكبرون وقد تم نموهم وهم مختلفون في الأمزجة و الطباع و العادات . وقد رأينا أحياناً أن مجرماً معيناً يكون قد شطأ من أسرة نظيف سجل ماضيه ولا ترقى الى نظافتها الشبهات . وأحياناً أخرى يتحدر أفراد من أسر ليست على جانب كبير من حسن

السمعة ، ورغم ذلك نرى هؤلاء الأفراد ينزعون دوماً الى ما يكسبهم مكانة الاحترام و التقدير بفضل ما يبدون من حسن سلوك و كثيراً ما يحدث ان بعض المجرمين يصلحون من وضعهم السلوكي فيما يتأتى تالياً من حياتهم . وكم من مرة عبر المختصون بسلوكية الجريمة عن دهشتهم اذ وجدوا لصوصاً ممن يكثرون السطو على المنازل ، جاء وقت عندما تجاوزوا الثلاثينات من اعمارهم مثلاً ، وقد تابوا بوازع من ذواتهم وارادوا التكفير عما اجتروا في الماضي من سيئات ، وعبروا عن عميق رغباتهم في أن ينضموا الى غيرهم من المواطنين الصالحين .

قبل أن أمضي بعيداً تحذوني الرغبة في أن أستبعد الفكرة القائلة بأن المجرمين هم أناس مرضى عقلياً وانهم مجانين Insane . لاشك أن هناك ذهانيين Psychotics يرتكبون جرائم ، لكن جرائمهم من نوع يختلف تمام الاختلاف عن الجرائم الأخرى من حيث نوعيتها وطبيعتها . فجرائم الذهانيين هي من النوع الذي يكون خارجاً عن ارادتهم . وفي هذا السياق يجب أن نستثني أيضاً جرائم ضعاف العقول من المجرمين ، ذلك لأنهم ليسوا سوى أدوات مسخرة وآلات مسيرة . انما المجرمون حقاً هم أولئك الذين يخططون بارادة وتصميم للجريمة والأجرام . فهم يرسمون الخطط لضعاف العقول ، ويزينون لهم الطموحات ، و يجميلون لهم الصور المرتقبة فيحملونهم على الإقدام على الجرائم ، وهم - أي المخططون المجرمون الحقيقيون - يقبعون في مخابثهم بعيداً عن أعين الرقباء ، لكنهم يدفعون بضحاياهم لتنفيذ الجرائم ، في حين أن المجرمين الدافعين اليها ينجون من قبضة العقاب . ويصدق الشيء ذاته ، بطبيعة الحال ، على الناس الناشئين الأغرار ^(٣) ممن تنقصهم خبرات الحياة ، فيسخرهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون أناس أكبر منهم سناً وأكثر مكرأ فيدفعون بهم الى اجتراح الجرائم بعد أن يخطط لها أولئك الماكرون .

ولأعد الآن الى نفس الخط الذي بدأت فيه نشاط البداية في هذا الفصل - وأعني به أن كل مجرم وكل إنسان في هذا الوجود - ينافح جاهدا ليظفر بالنصر الذي يريد ، و بالفلاح الذي اليه يتوق ، ذلك أنه تَوَّاق الى الغاية Finality التي ينشد بقدر ما تجوب آفاق فكره . انها منافحة من اجل اهداف . بيد أن هناك فوارق شتى واختلافات أربى بين هذه الأهداف ومراميها وأنواعها ، وإنا لواجدون ان هدف المجرم دائما يتمثل في أن يحرز تفوقاً كما يراه هو وفقاً لسجاياه الخاصة وما طبع عليه من رغب . فتوجهه هذا لا ينال أحد منه خيراً . وان سلوكه لا ينم على ما يعزز الروابط وتوطيد العلاقات . فالاجتماع يتطلع الى ابنائه ليوظفوا قدراتهم في كل ما من شأنه ترسيخ بنائه . وهدف المجرم لا ينطوي أبداً على ما هو مجدٍ للمجتمع ، ولا يخطر على ذهن المجرم ما نصطلح عليه بالنفع الاجتماعي التام . وتجدر الإشارة هنا الى أن نوميء الى درجة وطبيعة فشل المجرم في عملية الدمج الاجتماعي و الاندماج في رحاب المجتمع . ودرجات اخفاقاتهم الاندماجية تتباين الى حد بعيد : فبعضهم يكون إخفاقه أقل من غيره من حيث الخطورة . بعضهم يقتصر في إجرامه على جريمة صغيرة ولا يتعداها الى غيرها . وسوى هؤلاء يقترف جرائم كبرى ويعاودها . بعض المجرمين يتزعم الإجرام فيخطط للجريمة ويقود مرتكبيها . والأمر كله يتوقف على طبيعة نسق الحياة الذي يستمرئه المجرمون .

فاسلوب الحياة الذي يتشبع به كل فرد فيطبع به سلوكه في الحياة، انما ينغرس فيه منذ نعومة إظفاره ؛ واننا لواجدون ملامحه الأساسية وقد تأصلت و الفرد لما يزل بعد في عامه الرابع او الخامس من العمر . فليس بمقدورنا الافتراض ، اذن ، ان نقول أنه لأمر بمستطاعنا ازالته بتلك السهولة . انه لطبع أصبح مشتبكاً في نسيج الفرد الكلي : النفسي منه و الفلسفي . إنه شخصية الفرد كلها . لكن ما يمكننا عمله في هذه الحالة هو فقط ان نفهم حقيقة الأخطاء التي بدأت في حياة الفرد فتراكمت

فتوالت فأنتهت به الى ما آل اليه أمره . هذا ما نتمكن منه فقط ، دوغما
مزيد الى البهس^(٤) من القول . عندئذٍ فقط يتراءى لنا لماذا يحدث أن
بعض الجرمين لا يرفعون عن اقتراف نفس الجرائم ولا يكفون عن معاودة
إيئانها ، رغم ما يتعرضون له من العقاب و الحرمان و الإذلال : انهم
ييقون على ما هم عليه فلا يرتجى لهم إصلاح ولا ينتظر منهم صلاح .

لدى تأمل وضع هذا النمط من الجرمين في ضوء خبرات علم النفس
الفردى ، نتوصل الى انهم أناس فقدوا كل علامة تربطهم بالواقع
الاجتماعى ، انهم أفراد أنقطعت الصلة بينهم وبين السياق فى الحياة
السوية ، وذلك بفعل ما تعمق فى البنى الشخصية الخاصة بهم .

علم النفس الفردى بصّرنا فمكننا من ان نبتين هناك ثلاثة أقسام
موسعة تنتظم مشكلات الحياة .

أولى هذه المشكلات تتناول مسألة علاقة الانسان بالإنسان . فلا
غنى ، بأي حال ، للإنسان عن الانسان . هذا جزء من سنة هذا الكون .
والسؤال الآن : هل يشذ الجرمون عن هذا الناموس الكونى ؟ الجواب :
كلا . فللمجرمين اصدقاء لكن اصدقاءهم من نفس فصيلتهم . ولذلك
تنحصر صداقاتهم فى دوائر ضيقة ، تشمل نفراً من العصابات . لهذا
تتناقص مجالات علاقاتهم بالاجتمع على نحو واسع . فيقتصر نشاطهم فيما
بينهم فقط ، فتكتمش فعاليتهم ، معتبرين أنفسهم منفين فى الاجتمع ،
فارضين على أنفسهم الإغتراب ، رغم أنهم فى نفس الاجتمع يعيشون ومن
خيراته يأكلون .

المجموعة الثانية من هذه المشكلات تتناول مسألة الارتباط بعمل معين
أو مهنة محددة . فقد وجد أن هناك عدداً كبيراً من المجرمين حينما سئلوا

لماذا يرتكبون جرائم ولا يعملون ، كان جوابهم : (انتم لا تعرفون متاعب العمل وظروفه السيئة) . فهؤلاء المجرمون ، لو تتبعنا تاريخهم القهقري ، لوجدنا أنهم كانوا في مطالع حياتهم يواجهون عثرات وعوائق واخفاقات ، كل هذه زينت لهم القناعة بالتزويغ و الانحراف بدلاً من تذليل العقبات .

الجموعة الثالثة من مشكلات الاجرام ، تنطوي على فقدان الحبة في بواكير الحياة . فينشأون وقد تعمقت في نفوسهم الكراهية لكل ما في الحياة ، ينشأون وهم فاقدون الاهتمام بكل الحياة . وفقدان الأمل وفقدان الاهتمام يزيان للفرد الانجراف في تيارات دون ان يحسب لعواقبها أي حساب . وكثيراً ما سمعنا من عدد من المجرمين يقولون : (ما الفائدة من الحياة ، وانا لم أجد فيها بعض ما أريد !) .

فما الحل إذن ؟

لا مناص من ابتكار وسائل تعيد المجرمين الى حضيرة ^(٥) المجتمع . انه خطر ما بعده خطر ان نتركهم لمشينة القدر . فقلّ منهم من يرعوي عن غيّه . وطبيعة الإنسان نادراً ما تستجيب لنداء يصدر من اعماق ذاتها يدعوها الى الانصراف الى الخير . لا شك ان للتربية و التنشئة الأثر الفعال . لذلك يجب ان ينال المجرمين قسط من هذه التربية والتي هي في حقيقتها إعادة تربية وتأهيل لهم . فعندما نفهم ماضيهم ، وطموحاتهم ، ومستويات ذكائهم ، وخلفياتهم الأسرية و الاجتماعية ، نستطيع دون شك ان نعيدهم الى ما نرتجيه لهم من صلاح لينضاف صلاحهم الى صلاح سائر الأفراد الآخرين الصالحين من أبناء المجتمع .

ان صفوف المجرمين تضم صفوفاً متفاوتة من الأنماط الاجرامية : فهناك من بينهم : ضعاف العقول ممن يسخرهم غيرهم ، وهناك منهم من

كان يتيماً أو مشرداً ، ومن بينهم من كان يعاني من الحرمان الانفعالي ، ومنهم من كان يقاسي الحرمان المالي فيجد ضالته في إغرائه بالمال ، ومنهم من كان معرضاً للقسوة والعنت أيام طفولته ، فيعبر عن ذلك تعويضاً بالانتقام من الأسرة أو بمن يرمز لها وهو المجتمع ، ومن المجرمين من يندفع الى الاجرام تحت طائلة التخويف و التهديد الذي يقعون تحت طائلته من عتات المجرمين المحترفين ، ومن المجرمين من يتجه صوب الاجرام بدافع التعويض عن تشويه أو عاهة في خلقه : ظاهرة أو مستترة الخ .

و النفس ما لم تُربَ على الخير وهي غضة ، فما اسهل أن يجد الشرَّ اليها سبيلاً .

حينما يتقصى المرء سيرة المجرمين ، يجد أن جميع أسباب انحرافاتهم كانت قد نبتت بذورها في أيام حياتهم الغريرة عندما كانوا في كنف والديهم وذويهم . ففي دراسة ضمت بين غلافها سيرة موضوعية لعدد من المجرمين يبلغ مجموعهم (٥٠٠) فرد . الدراسة كان قد قام بها شيلدون Sheldon و الينور . ت . غلوك Eleanor T. Glueck . ولدى تأمل كل حالة أتضح أن السيرة التي آلت اليها حال صاحبها كانت قاسية أيام الطفولة ، فمن خصام بين الأبوين يؤول بنتائج السيئة على الأبناء ، ومن حرمان من التعليم المبكر بقصد توجه الولد منذ الصغر بقصد العمل و الكسب ، ومن تشرد ولا أحد يسأله عن المتشرد الصغير ، ومن اغراءات من خارج محيط الأسرة تنتهي بالصبي اليافع الى الانجرار وراء الجريمة ، ومن عوامل مفاضلة تصدر عن الآباء في تقريب أحد الأبناء واستبعاد بعضهم مما يدفع بالمنبوذ الى الهرب و الانتقام ... الخ .

من تجاربي الشخصية المستمدة من تعرّفي على المجرمين الذين كنت على تماس بأوضاعهم ، ومما قرأته عنهم في المصادر الكثيرة ومن تتبعي ما ينشر

عنهم في الصحافة ، فعلت كل ذلك لأكون فكرة متكاملة عن أوضاعهم وعن اتجاهاتهم وعن حقائق تكوينهم ، فوجد أن المفتاح الذي يقدمه لنا علم النفس الفردي^(٦) يمكننا بشكل أوفى من فهم ظروف هذه الفئة من البشر . دعني الآن أختز شيئاً قليلاً من الايضاحات عن هؤلاء من كتاب بالالمانية قديم تأليف أنطون فون فويرباخ Anton Van Feuerbach . واني لأجيز لنفسي أن أعلّق بصورة عابرة هنا ، ان خير وصف عن المجرمين قد قرأته في علم النفس القديم Criminal Psychology الذي كتب عن الاجرام بوضوح ودقة .

والى القارئ بعض الحالات المذهلة :

١- حالة كونراد ك. ، قاتل أبيه بمساعدة خادم كان يعمل عندهم . كانت معاملة الأب لابنه معاملة إهمال ، ونبد ، وقسوة . بل أن الأب قد أساء معاملة الأسرة كلها . وكان الأب قد قسا على كل فرد من افراد عائلته ، ولكن بصورة أشد وأعتى كانت معاملة الوالد لابنه كونراد . وبعد أن هجر الوالد أسرته كلها وعاش مع امرأة أخرى سيئة السمعة ، راح الولد يتسكع في الأزقة و الطرقات ، وقد وجد له من زين له قتل أبيه . وكان الشيطان يعيش تحت جلد كونراد ، ولما وجد التشجيع من شخص متشرد مثله وأكبر منه سناً ، أقدم على قتل أبيه من غير تردد ، ذلك لأن عاطفة الأبْن نحو الأب قد جفّت منذ أمد .

٢- وثمة حالة مارغريت زفانزايجر ، ولتي كانت يطلق عليها (القتالة بالسّم الشهيرة) ، كانت قد تولت رعايتها في الصغر جمعيات البر و الاحسان ، وكانت في مظهرها قمينة الجسم مشوهة الخلقة ، لذلك دأبت على المشاكسة وجلب الانتباه لذاتها بأبشع الأساليب التي تستطيعها ومن محاولاتها الأولى الخطيرة ، أقدمت ثلاث مرات على تسميم ثلاث نساء بقصد التخلص منهن لتضمن الزواج من أزواجهن . كانت تشه

بالحرمان ولم تستطع التخلص من رغبة الاحساس بثقل وطأته على نفسها^(٧) . كتبت في سيرتها الذاتية (وكثير من الجرمين يسرهم اللجوء الى كتابة السير الذاتية ولكن دون ان يفهموا حقاً ما يقولون) ، تقول : (كلما أزمعت على الإقدام على عمل شائن خبيث ، خطر على ذهني أن ما من أحد يداخله الأسف من أجلي : واذن فلماذا أقلق اذا انا جعلتهم آسفين ؟) .

٣- هاك حالة ثالثة : ها هنا نجد أمانا (ن . ل .) N.L. اكبر الأبناء ، أسيئت تنشئته في أسرته ، أعرج في أحد القدمين ، اتخذ لنفسه مكانة الأب في العناية بأخيه الأصغر . ولعله فعل ذلك ليحقق لنفسه تفوقاً كان يتوق اليه ، ولكنه تفوق له جوانبه الايجابية في مثل هذا الموقف ولحد هذه اللحظة ، ولعل الدافع الى ذلك ايضاً التكابر و الرغبة في التفاخر وحب الظهور . ما لبث (ن . ل) هذا أن طرد امه من البيت شر طردة ، اذ رمى بها خارج جدران المنزل وهو يقول لها : (اذهبي الى الجحيم ايها المتوحشة) . فراحَت تتكفف^(٨) الناس . ولو تأملنا طفولته لوجدنا انه كان ينحدر نحو هاوية الاجرام ، بدلاً من الارتقاء في مدارج النمو بانتظام . كان يتسكع ، فلا يلبث في عمل معين . فما كان منه حتى اقدم على قتل أخيه الذي كان في سالف الأيام يتولى رعايته . وما قتله له الا ليتخلص من الإنفاق عليه . فهذا الفرد قد نشأ وكأنه طوق نفسه بقيود التعطل عن العمل و التبطل المتعمد ، و التشرد ، و القسوة على غيره ، وهي قيود خانقة ، اذا ما أحكمت على صاحبها خناقها ، فلن تدعه يفلت من قبضتها ، وسرعان ما يحترّ صريعاً جراء قسوتها .

٤- واليك ، ايها القاري ، حالة رابعة لطفل يتيم تبنته امرأة ونشأته مع أبنائها . وأولته من الحنان ، حتى دلتته وفضلته على أبنائها . ولما أيقن أنه مدلل ، حسب أن كل شيء في الدنيا يكون طوع ارادته . ولما أن

شب عن الطوق وبلغ مبلغ الشباب ، وكان عليه ان يواجه الحياة ، وجد في نفسه الاتكالية و التواكل . فما كان منه الا ان انهار حينما وجد نفسه وجهاً لوجه مع الحياة على محك الحياة .

ليس منا من يريد لأي طفل أن يتعرض في حياته الى المثبطات التي من شأنها أن تلوي شكيمة ارادته وان تهصر قوة قدراته ، فينشأ وقد أشبع بعناصر الإنحراف وأترع بحب الإنتقام . غير أن قولنا هذا لا ينبغي ان يحول دون استهجاننا بل إستقباحنا ما يقدم عليه المجرم وهو يختار طريق الضلال. ونحن بدورنا نستطيع في أغلب الأحيان أن نصلح من ضلالتة وان نعمل على هدايته ، وفي طوقنا أن نقطع على المجرم طريق اجرامه إذا نقبنا في ثنايا نفسه عما مكث فيها من بقايا خير ، الا العتاة منهم ممن تمرسوا بأسباب الجريمة وأستعذبوها . ولعل أول عمل يمكننا من رد كثير منهم الى سواء السبيل يتم بان ننتزع من نفوسهم ما يسمى بالتسويغ الذاتي Self Justification - . فالجرمون في الأغلب يبررون لأنفسهم الإقدام على الجريمة كل حسب نظرتة الى الحياة ، وحسبما واجهه من معوقات أو مثبطات .

واكبت الجريمة وجود الانسان على هذا الكوكب . وانها لكارثة ان تكون مسايرة لتاريخ الانسانية ، و الانسانية حتى الآن لم تستطع منها خلاصاً . السبل السليمة للتخلص من مشكلة الجريمة لا تعيننا ، ولكن أنى لنا أن نتحكم بطبيعة الإنسان التي لا ندري متى يستحوذ عليها شيطان الإجرام ! .

ها قد مرّ بنا ان المجرم لا يختلف في شكله وفي مظهره شيئاً عن سائر أبناء جنسه من البشر . فهو لم يُخلق استثناءً و لكن سلوكه يعد شذوذاً مغايراً تماماً لما ارتضاه المجتمع لنفسه من حب إستقرار وما نصبو اليه من

أمان . ولا نكاد يداخلنا الاندهاش اذا ما اكتشفنا ان المجرم يكون في الغالب قد هيا نفسه وأعدّها للإجرام إعداداً حسبما يستسيغه من نوع الجريمة التي يقدم دائماً على اقترافها وكأنها أضحت من تخصصاته المهنية . وعندما نتتبع ماضي المجرم نجد دون شك ثمة احتجازات كانت قد طرأت في فترة ما ، من فترات حياته الماضية ، ولا سيما إبان الطفولة و المراهقة وأيام بدايات الشباب ، فجعلته في إتجاهاته مناهضاً لطبيعة الحياة المرتضاة .

فالمجرم ، من زاوية التحليل النفسي ، وحسب مفهوم علم النفس الفردي ، انما هو فرد قد فقد كل تماس يوطد علاقاته بواقع الحياة من حوله ، ثم يفقد الأمل في تحقيق أي نجاح يرى غيره قد حققه ، لكنه يوجه طاقته الى كل ما هو فائل . بيد أنه يستبقي شيئاً من طاقته وقوته ، فيرمي بهذه البقية الباقية من نشاطه فينثرها شروراً بوجه الحياة وعلى كل ما فيها من قيم ومقومات .

المجرم يمضي وقته كله ويهيء نفسه ، فيخطط خلال النهار ويحلم أثناء الليل ، وهو يفكر كيف يخترق آخر ما تبقى له أن يخترقه من حدود الاهتمامات و المصالح الاجتماعية المستقرة . فهو فرد يكون قد عبأ أفكاره وانفعالاته للإعتداء على الصالح الاجتماعي العام . وانه لينفق جُل وقته يلتمس المعاذير ويتحرى التبريرات التي يتذرع بها لارتكاب الجريمة . فهو يرتكب الجريمة ويعلل لنفسه انه (أضطر الى ذلك) . انه ينظر الى العالم من خلال عينيه هو .

يشرع المجرم بحبك خطة اجرامه و التحضير لها مسبقاً عندما يكون أمام صعوبة ، ولم يأنس في نفسه الشجاعة لمواجهةها ، لذا يبدأ يبحث عن أسهل حل لها . لكن لا بد للمجتمع من أن يحمي ذاته . فشمة مجرم يتآمر ، وهناك مجتمع ينشد الأمان . ولكن من مأمنه يُؤتى الحذر^(٩) . فالمجرم شأنه

شأن أي انسان آخر يصبو الى هدف ويتوق الى التفوق . لكن فرقه عن سائر الناس الأسوياء أنه يتسمت ^(١٠) سبيلاً ملتوياً لتحقيق بغيته . فهو يكافح لنيل مأربه وانما خارج اطار المجتمع : ان هدفه هو هدف من صنع خيال أفكاره ، يذهب فيه الى التفوق متصوراً نفسه فلتة من فلتات الزمان ، قاهراً لإرادة حماة الأمن ، وانه قادر على خرق القانون ، معتدياً على المؤسسات المجتمعية . كل هذه الأفكار تعتمل في عقله ويبررها على هواه الذي يسوّل القبايح . انه فرد يستطيع ما تعارف عليه المجتمع بأنه مستهجن . وعندما يقبض عليه متلبساً بجريمته تجده يقول لنفسه : (لو كنت أشطر ، لنجوت من الخطر) .

لذا نستطيع أن نتبين عقدة النقص تجري معه في مسلكه . اذ هو ينظر لذاته من داخل ذاته فتبدى له نفسه على حقيقتها حيث يرى ذاته انه عاجز عن النجاح اذا سلك الطريق المستقيم . فيعتمد الى اخفاء مشاعر القصور التي تعوي كالذئاب في إهابه ، ويتجه بدلاً من ذلك الى ارتداء مظهر كاذب فينمي في نفسه عقدة تفوق خسيصة . فيوهم نفسه بانه شجاع مقدام . ويوهم نفسه بانه أذكى من غيره .

ان المجرم ليحمل حقاً مشاريع حياته الخاصة به في أحلامه التي يصوغها هو لنفسه . انه فرد يجهل الواقع ومعناه . انه فرد يكلسم ^(١١) في الحياة فلا يعمل .

هناك شيء جم بمقدورنا فعله . فلا يصح منا أن نتلكأ في أخذ للأمر أهبتة . فاذا كنا لا نستطيع تغيير كل مجرم ، فلا أقل من أن نعمل على تخفيف الأعباء ^(١٢) التي ينوء بثقلها أولئك الأشخاص الذين يجدون أنفسهم تحت وطأة ظروف ربما تؤول بهم الى حماة الإجرام . اذ باستطاعة المجتمع أن يحاول بغير توانٍ ، ان يستبقي في نفوس أبنائه سوانح الأمل التي تدرأ

غوائل التبطل و تستبعد روح الكسل الباعث على اليأس . و اني لعلني
يقين من اننا بعملنا هذا نكون قد توقينا مغبة معظم الشر الذي يبدأ
بهفوة وينتهي بكوارث . ومعظم النار من مستضعف الشرر ^(١٣) .

ومما أنصح هو ان نبتعد في حياتنا الاجتماعية ، ما امكنا الابتعاد عن
كل شيء تُشتم فيه رائحة التحدي للمجرمين ، او الخط من اقدار الناس أو
تحقيرهم أو التقليل من شأنهم . ذلك لأن مثل هذا النوع من السلوك يثير
حفيظة كل من تنطوي نفسه على شيء من بذور الشر . واني لأؤكد هنا
أيضاً بأن لا نسيء معاملة المتخلفين من الأطفال ولا المشكلين منهم . فلا
ينبغي لنا مثلاً أن نتحداهم بإظهار قوتنا وإبراز ضعفهم أو أنخرفهم . فما
السبب الكامن وراء قولنا هذا ؟ ذلك لأنهم سيضطغنون كل هذا التحدي
في اعماق نفوسهم ، ومن ثم يعتقدون أنهم في حالة حرب خرساء غير
معلنة مع محيطهم الذي يعيشون بين ظهرائه . فينشأون وهم يضمرون
إتجاهات مناوئة لكل ما تحفل به الحياة . ويجدر دائماً ان نتذكر أن أكثر
المجرمين نما في نفوسهم الإجرام في مواقف كهذه . كما يجدر أيضاً أن تعلم
انه لا التحدي المصطبغ بالقسوة يجدي مع المجرمين ، ولا اللين الممتع
المتشبع بالشر يهديهم سواء السبيل الذي فيه نطمع . بل ان المجرم ليتمكن
تغييره فقط اذا أفلحنا في إفهامه بحقيقة موقفه الشاذ . ولدينا من الأساليب
مالا تعيننا الحيلة في ابتكاره لأصلاح هذه الأنماط من الناس .

كل ما ألعنا اليه من وسائل يمكن أن تكون فعالة في الحد من أضرار
الجريمة . ولكن ينبغي لنا أن نستذكر حقائق الحياة وطباع الناس . فمهما
اجتهدنا للتقليل من الجريمة فلن نتمكن من الوصول الى القضاء عليها .
غير أن هذا القول لا ينبغي له ان يشبط من العزائم باتجاه تنشئة النابتة ^(١٤)
من الأجيال على حب الانتماء الى ابناء مجتمعاتهم ، وغرس روح الاستهداء
بالقدوة المثلى ، فمن شأن ذلك أن ينمي في نفوسهم الطرية الإنجذاب الى

كل ما هو خير مستطاب ، وتحاشي كل ما هو سيء مستراب . والمتفق عليه بين الباحثين ان الجريمة غالبية التكرار لدى مرتكبيها ممن تتراوح أعمارهم بين (١٥-٢٨) سنة . فهي تبدأ بهذه الأعمار ، ثم تستطرد وتستفحل . وفي جهودنا الرامية الى التقليل من حجم الجريمة يجب ان نتوجه باديء ذي بدء الى جذورها : أعني بذلك ان نبدأ من الطفولة ، فالأسرة و المدرسة هما البيئة الأولى التي تنغرس فيها بوارق المستقبل المرتجى بكل تفاؤله . بيد أنه يجب التحفظ بعض الشيء هنا بشأن الأسرة ، وعلة ذلك قد يكون من العسير أحياناً الوصول الى الآباء لنجري معهم حواراً عما يكون وما لا يكون بصدد تربية أبنائهم على وفق أصول علم النفس . لكن الرجاء كل الرجاء يبقى معقوداً على المدرسة بأعضاء هيئة التعليم فيها . فاذا أفلحنا في جعل المعلمين لمهتهم مدركين ومستوعبين ، نكون نجحنا في إصلاح معظم النفوس التي قد تضل بالإغواء .

ولي أن أضيف في المآل أن ما ظفرت به حضارتنا من منافع انما تحققت بفضل أناس وفروا جهودهم ووظفوها لخدمة مجتمعهم . فمثل هؤلاء ينثرون ثمرات اعمالهم النفسية فلا يضمنون بها . و الحق ، فلا يلبث في ذاكرة الناس ولا يلبث في ضمائر ابناء المجتمع الا أولئك الذين عرفوا قدر أنفسهم فمنحوه هبة الى أوطانهم . فأرواحهم هي التي تتواصل ، وأرواحهم هي التي تخلد . فمن صفت نفسه ، الى البناء الحضاري وجهها ، ومن ألتوت نفسه ، في طريق الضلال وظفها . فهذا النمط من الناس - أعني المجرمين - يستهجن الجميل ، ويستطيب الويل . والشمس تقبح في العيون الرمء^(١٥) .

هوامش الفصل السادس

١- جون ديوي المربي الأمريكي المعروف ، وصاحب الفكرة الذرائعية وقد تسلمها أساساً من وليم جيمس .
(المترجم)

٢- النحيظة : الطبيعة .
(المترجم)

٣- الأغرار : جمع ، مفردها غر (بكسر الغين) معناها الطفل القليل الخبرة ، و الشاب الذي لم يكتسب بعد تجربة في حياته .
(المترجم)

٤- البهس و البهش : الكلام المزخرف أو الزائد منه ، كما في غب الحاكم .
(المترجم)

٥- حضيرة (بالضاد) للإنسان ، و حظيرة (بالظاء) للأغنام و البهائم .
(المترجم)

٦- يكرر أدلر أهمية علم النفس الفردي ومكانته ، لأنه علم أوجد أدلر دوره في علم النفس حتى أصبح أشبه بالمدرسة العلمية ، فلا غرو أنه يردد ويؤكد مكانة علم يراه نسيج وحده ضمن الفكر النفسي بوجه عام .
(المترجم)

٧- هذا نموذج في الحياة حاصل ، ولك ان تقابله بقول أبي العلاء المعري :
واللبُّ حاول أن يهذب أهله فإذا البرية ما لها تهذيب

من رام إتقا الغراب لكى يرى وضح الجناح أصابه تعذيب
(المترجم)

٨- يتكفف الناس : أي يتسول .
(المترجم)

٩- مثل عربي ، وانه ليؤدي ما رمى اليه المؤلف حيث اراد القول : ان
المجتمع يتعرض أحيانا للمخاطر من بعض مواطنيه .
(المترجم)

١٠- تسمت الطريق : أي سار على قارعه .
(المترجم)

١١- ذكر ابن الأعرابي : كلسم فلان وكلشم : اذا تكاسل وتمادى .
(المترجم)

١٢- والشيء بالشيء يذكر وحمل النقيض على النقيض لا يستكثر،
ولنا في هذا السياق ان نذكر قول (العطوي) في شكايه الأخوان:
لي خمسون صديقاً بين قاض وأمير
لبسوا الدنيا ولم أحر لع بهم ثوب الفقير
(المترجم)

١٣- مثل عربي يؤدي المعنى الذي اراده المؤلف .
(المترجم)

١٤- النابتة يراد بهم الناشئين من الأبناء من كلا الجنسين ، و
المصطلح كان قد صاغه الجاحظ .
(المترجم)

١٥- مثل عربي يؤدي بدقة المعنى الذي ذهب اليه المؤلف .
(المترجم)

الفصل السابع

الحب ورابطة الزواج

جرت العادة في إحدى المناطق الألمانية ان يتم اختبار الشخصين المتقدمين للزواج ، إختباراً يقصد به ألتحقق عما اذا كانا مناسبين لبعضهما ، متكافئين في الزواج ، وانهما مؤهلان ليمضيا حياة تجمعهما معاً . وقبل الاحتفال بعقد القران كان يؤتى بالعريس و العروس ويوضعان على الحك ، فما هو هذا الحك ؟ انه ساق شجرة كانت قد تم اجتثاثها من فوق الارض مسبقاً . فيعطى للمخطوبين منشار بمقبضين ، ويطلب اليهما البدء بنشر ساق الشجرة متقابلين . بهذا الاختبار يتم التعرف على مقدار ما يضمره كل منهما من حب التعاون المشترك من خلال سلوكهما الظاهري ذاك . فهي مهمة تمثل الواجب المتبادل بين شخصين . وبهذا يتبين المحكمون انه ما لم تكن هناك ثقة متبادلة بينهما ، فانهما ، عند النشر ، يبدأ يشد كل واحد منهما من حيث لا يشعر ضد الآخر ، فلا يحققا . بالتالي شيئاً . فاذا كان أحدهما يرغب مثلاً في ان يتولى زمام الأمر وان يقوم هو نفسه دون الآخر بكل شيء ، فقد وجد أن المهمة تتطلب ضعفاً من الوقت و الجهد ضعفاً من الوقت و الجهد ، حتى لو أرخى الآخر وأسلم القيادة . فماذا يستخلص من هذا ؟ يستخلص من ذلك أنه يتعين عليهما كليهما ان يبديا من المبادرة وحسن التعاون ، وان مبادراتهما يجب

أن تلقتي وتلتئم معاً . فمن هذا يتضح ان هؤلاء القرويين الألمان ، قد أدركوا يومذاك ان التآلف وحب التعاون والإقبال عليه ، انما هي عوامل تعد المطلب الأساسي الأول للزواج الناجح .

ولو أني سئلت عما يعنيه كل من الحب و الزواج ، وعن العلاقة الرابطة بينهما ، لعرفتُهما كالتالي ، وان لم يكن تعريفاً وافياً : (الحب بكل مقوماته ومستنجزاته ، و الزواج واحد منها ، انما هو شوق دفاق ، وتфан حميمي ، واخلاص إصطفائي ، يوجه من شخص الى آخر ، يستشعر نفس المشاعر ، ويستبطن نفس الأحاسيس ، فيتأصل الحب في قلوبهما ، وعلى النوايا الصادقات الخالصات تصافيا ، بعد أن أستقرأ كل منهما في الآخر ، سجايا وشمائل إستهوت منهما الفؤادين في آن ، فقرّبت بينهما وأفضت الى زواج أثمر في إنجاب الأبناء . فالحب في هذا السياق ، وفي هذا الاطار ، هو تحنان تأثلت جدواه ليس لصالح إثنين وحسب ، بل إنّ قطافه لتشمل النوع الانساني قاطبة) .

فوجهة النظر هذه ، واعني بها ان الحب و الزواج انما هما مؤالفة يتناثر خيرها لصالح الجنس البشري كله ، تلقي ضوءاً كشافاً على الموقف برمته . فغرض الحياة هو إدامة الحياة على وجه هذا الكوكب .

فلا ينبغي لنا بحال ، ان نحكم على الحب و الزواج وكأنهما مشكلتان منعزلتان عن سائر أوجه الحياة ومشكلاتها . فما من أحد منا نحن البشر أن يكون حرّاً بشكل مطلق فيعمل ما يحلو له أو كما يهوى ويشاء . فهو لن يستطيع تأمين الحلول لمشكلاته وفقاً لنهج يؤسس عليه افكاره الخاصة . لكل انسان قيود وحدود ، ذلك أن ارتقاءه طبقاً لمستلزمات الطبيعة تلزمه ان يكيف نفسه وان يخضع قراراته ضمن إطار الواقع واحترامه لواقع المعاش . اننا نعيش في هذا الكون ، وعلينا أن

نعيش وفق قدراتنا ، وان نحترم أحاسيس سوانا . فبهذا تنتظم الحياة ويسودها الوئام .

يجدر ان لا يفوتنا التنويه هنا ، بأنه إذا ما أبدى الفرد اهتمامه بمن حوله ، واطهر احترامه لما للآخرين من مشاعر ومنافع ، فسيكون كل نشاط يقوم به مشبعاً بروح الغيرية بعيداً عن النزعة الأنوية^(٢) . و الشخص الذي تتجه نواذعه باتجاه الخير هذا ، يكون بلا شك زوجاً أو زوجة ، يرنو الى قداسة هذه الروابط القلبية .

النماذج البشرية ما أكثرها - و الأنماط السيكولوجية تجمع أشتاتاً منهم ، وكل هذا ينعكس على تصرفاتهم إن في حياتهم الفردية ، أم في حياتهم الزوجية . فمن بعض هذه الانماط النفسية مَنْ تراه بدلاً مِنْ أن يسأل : (مالذي عليّ أن أعمله لأسهم في صالح حياة من حولي ؟) ، نجده يقول : (ما فائدة الحياة ؟ وما جدواها لي ؟ وما مكافأتها لي ؟) . فالنمط الأول كأن يسأل وهو يريد ان يوسع آفاق اهتماماته الى غيره ، والنمط الثاني يسألون ، واسئلتهم تشف عما تحتها من الانسحابية ، والرجسية ، بل و العدوانية .

فالحب ، تبعاً لذلك ، ليس مهمة طبيعية خالصة ومحضة ، كما يعتقد بعض المختصين بعلم النفس . وليست المسألة مسألة هل الجنس دافع Drive أو غريزة Instinct ، بل المسألة هي ان ينظر الى الحب و الزواج من ناحية الارتقاء لا من ناحية الجنس و الارتواء . وعلينا أن نضمن اننا حينما التقينا أن نتأكد من ان دوافعنا وغرائزنا ، قد هذبت ، وشذبت ، ومن ادراكها قد نقيت . وبذلك يتسنى لنا أن نتيقن من أننا لم نخدش أذواق الناس من حوالينا . فشأن حياتنا الجنسية كشأن أذواقنا Tastes وسجاياتنا Manners، تلك يجب ان تصفى من شوائبها كهذه . وبمستوى

تهذيب اخلاقياتنا تقاس حضاراتنا .

إن نحن طبقنا هذا الضرب من الفهم على مسألة الحب و الزواج ، فاننا نرى ان الاهتمام بالكل ، و الاهتمام بالانسان ، يجب ان تكون دائماً من متضمنات الاهتمام الكلي^(٣) . وهذا الاهتمام من حيث نوعه وممراته يعد أمراً أساسياً . فلا فائدة ترجى عندما نبحث جوانب الحب ، أو عناصر الزواج ، مجزأة ، أو منفصلة عن التخاطب الانفعالي الإنساني بصيغته المتكاملة . فربما نجد ، لو اننا فحصنا تلك العناصر فرادى ، إجابات أفضل ، وربما نتوصل الى ارتقاء اجهل ، غير أننا يجب ان نعلم ان ما بلغناه من شأو في هذا المضمار ليس بفضل جهد مجرد ، وانما يكون ذلك قد تم لأننا نعيش مع بعضنا جنسين فوق الأرض متمايزين بوظائف متتامة .

الزواج مشاركة روحية تفاعلية بين اثنين يربط بين قلوبهما حب خالص . وما الحب الا من الميول العالية . ولذلك يجب ان يكون ميل أحد الزوجين الى الآخر أكثر من ميله الى نفسه . وهذا النوع من الإيثار يعد الأساس الوحيد الذي يقوم عليه الحب و الزواج الناجحين . والإيثار المتبادل بين الزوجين يعكس تفهم كل منهما للآخر ، ويجعلهما في قرارة نفسيهما يدركان معنى العدل في الزواج . وهذا الضرب من الاتجاهات بينهما تحمل الزوجين على أن يحاول كل منهما أن يشري حياة الآخر ويغنيها بالرضى . وهذا خير صمام أمان لدوام الزواج . فيحسن كل واحد منهما مقدار أهميته في عين نفسه وفي عين شريكه في الحياة ، مما يجعل الحياة في نظرهما جديرة بان تعاش وان تستثمر فيها الجهود . وهنا نجد بكل يسر وسهولة المعنى الأساسي للسعادة و العلاقة القائمة على التشارك الوجداني . وهذا توجه لا حُم منه^(٤) . ولا يناقض ذلك ، أو يحاول مناهضته الا مَنْ لا معنى عنده للقيم ، أو مَنْ لا يعيش بأخو^(٥).

فما من أزمة يمر بها الراشد في حياته ويقوى على التصدي لها ما لم يكن قد تم اعداده لها من قبل : و التدريب لمواجهة أزمات الحياة إما أن يكون ذاتياً ، وأما ان يكون مبنياً على أسس مؤسسية مجتمعية . اذ يستحيل على الفرد أن يتولى حل مشكلة تعترضه ما لم يكن قد تدرب في حياته وأخذ للأمر نبأته ^(١) . ولا ينأى الزواج عن هذا السياق . فهو يتطلب ترويضاً نفسياً ، واعداداً له ، واستعداداً لتقبله ، لأنه يمثل رابطة روحية حياتية . بل انه ليتطلب إفهام الناشئة بمقدار قداسته . لكني لا أنصح بان يتحدث فيه الآباء مع الأطفال في سن مبكرة ، وان لا يكون التحدث عنه بشكل مباشر يدعو الى الاستشارة . وانما أقصد أن يتم الكلام عنه بما يغرس في النفوس الطرية مقام القيم التي تشد من أسر الأسرة حينما يكون الزواج شامخاً على دعائم الفهم الصحيح بين زوجين ارتضيا عن قناعة ان يكونا زوجين .

يستمد الاطفال قناعاتهم عن الزواج مما يكونونه من انطباعات مبكرة مصدرها آباؤهم . لذلك فان احترام معنى الزواج يُستقي بالخبرة ، ويُحتذى بالقدوة .

مهما أسهنا في ضرورة تقديس الزواج ، وناديننا بوجوب مراعاة مزاياه ، فهل عسانا في ذلك مفلحون ؟

يجدر الا يغرب عن أذهاننا ان هناك من المشكلات ما لا يقع تحت حصر ، وكلها قد تكون من عوامل الإخلال بمكانة الزواج وإنزاله من مكانته الرفيعة التي نبنيناها له في تصوراتنا مما يهدم صرحه في الحياة . من ذلك مثلاً ، ان الطفل المدلل في طفولته عندما يبلغ سن الزواج يبحث عن زوجة في مخيلته تمنحه ما كان قد اعتاده من دلال . وكم من زيجة فشلت لهذا السبب بعينه . فهو يريد أن يبقى طفلاً كما كان من قبل ، والزوجة

تريد رجلاً يُعتمد عليه ، وهذا التنافر يفضي الى التناحر و النتيجة هي الافتراق . وربما تكون الزوجة قد أفسد طفولتها التدليل ، فلا تجد الزوج المتفهم ، فتنتهي حياتهما الزوجية الى نفس المآل .

ثم هناك مشكلة الزوج الذي عانى أيام طفولته الحرمان الانفعالي وحنان الأم ، فينشأ وهو ينشد التعويض لدى زوجة تعوضه عن حنان الأم ، ومن ذا الذي يضمن له ذلك ، ومن أمثال هذا الزوج كثيرون . لذلك تنحل أواصر الزواج على أساس هذا الخطأ السيكولوجي . وكذلك الحال بالنسبة للمرأة التي قاست إيان طفولتها الحرمان من حنان الأب ، فيهفو فؤادها الى زوج تعويضي . والنتيجة كثيراً ما تبوّل الى الانفصال بدلاً من إشباع نواقص الانفعال .

ويجدر ان لا ننسى سائر المشكلات المألوف منها وغير المألوف ، والتي تتحكم بمصائر الزواج . ولكل مجتمع تقاليده ومشكلاته ، ولكل حضارة أساليبها وقيمها . وما أكثر هذه وتلك، وكلها مؤثرات ما من أحد يستطيع أن يحبس أين يكون وقعها أشد . فمن ذلك مثلاً : هناك من الناس من يعيش في حياته النفسية في عالم من الرومانسية . فمعنى الحب عندهم منظور اليه من زاوية خيالهم المثالي الجامح وليس بمعنى المثالية الإيجابية المحبذة ضمن حدودها المقبولة . ان هذا النمط من الناس ، ومن الجنسين ، يرغب أن يلبث محلقاً على اجنحة الخيال ، بعيداً عن واقع الحال . لهذا فإن الزواج عندما يحصل بين رجل رومانسي وامرأة واقعية او بين زوجة رومانسية ورجل واقعي ، أو بين اثنين من نفس النمط ، فان الزواج سينتهي الى فصم عرى الروابط ، مهما جرت محاولات لرأب الصدع .

عندما نتحدث عن التفاهم في الزواج ، نقصد به بأدق عبارة أن يسأل كل من الزوجين نفسه : (هل يحق لي وحدي ان أحصل على كل ما أريد دون أن أدع مجالاً لغيري ؟) . فاذا حدث أن حدث الزوج بذلك نفسه ، وحدثت وسألت الزوجة نفسها سؤالاً كهذا السؤال ، فمن المؤكد ان تكون أرضية الزواج أصلب امام النوازع الطارئة التي كثيراً ما توسوس بها النفس .

فمن سنن الحياة الكثيرة ، ثمة سنة الزواج ، فهذه السنة الحياتية تفضي بضرورة العيش بين زوجين في بيت واحد طبقاً لنظام مشروع . ولعله ما ، نرى بعض الأشخاص ، من الجنسين ، من يبقى العمر كله عازفاً عن الزواج . ولكن هل من المستساغ أن نضع سنة الانسانية في الحياة ، في أيدي أمثال هذا نفر القليل من البشر ؟ ان منطق الحياة يرفض ذلك بلا أدنى نقاش . وحينما نبحث فيما وراء المنطق القويم ، و التفكير السليم ، نجد الذين يسوغون لأنفسهم الخروج على المألوف ، لا تنقصهم مفردات منطقهم الجدلي الخاص بهم والذي لأنفسهم أبتدعوه ^(٧) .

هوامش الفصل السابع

١ - الاتجاهات الغيرية او النزعة الغيرية يراد بها إثثار مصلحة الجماعة على المصلحة الذاتية . هذا مبدأ نفسي . ولكن حديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كان قد سبق هذا بأكثر من ألف عام : (أحب لغيرك ما تحب لنفسك) او كما قال عليه أفضل الصلاة و السلام .
(المترجم)

٢ - الأنوية و الأنانية : حب الذات وإثثار المصلحة الخاصة على مصلحة الآخر وعلى مصلحة الصالح العام . وهذا أيضاً من مصطلحات علم النفس الحديث .
(المترجم)

٣ - يستخدم أدلر مصطلح (الكل) و (الكلي) Whole حسب المفهوم الجشتطالتي ، لكن تأكيده دائماً ينصب على الفرد حسب مفهومه لعلم النفس الفردي الذي يتزعمه .
(المترجم)

٤ - لا حُمّ منه : لا بدّ منه .

٥ - لا يعيش بأخوَر أو ما يعيش بأحور : أي ما يعيش بعقل كما جاء في : إصلاح المنطق لابن السكّيت .
(المترجم)

٦ - أخذ للأمر نبالته : أي استعد له مسبقاً .
(المترجم)

٧ - يؤكد أدلر في حديثه عن الزواج ، على أنه علاقة تضيي على المجتمعات و الشرائع قدسية واحتراماً . ويؤكد أيضاً على جوانب اخلاقية

ينطوي عليها الزواج المشروع ، من ذلك مثلاً انه اساس ديمومة سنة الحياة الانسانية ونمو المجتمعات ، وانه دعامة التطوير و التعمير. وان الزيجات المحرمة أو غير المشروعة ، لا يمكن أبداً ان تترك على وجه هذا الكوكب أثراً يذكر ولا عيثراً - يقال ما رأيت أثراً و لا عيثراً بنفس المعنى - .

فضلاً عن ذلك ، يؤكد أدلر في كتاباته عن الزواج بأنه يمنح كلاً من الزوجين فرصة النضج و التكامل ، وتحقيق الذات ، و الحفاظ على الكرامة . كما يذهب أدلر الى أن شخصية الفرد الناضجة انما هي ثمرة تنشئه مستقرة أيام الطفولة في أسرة مستقرة قوامها زواج متكافي ناجح .
(المترجم)

من الأنجازات العلمية للمترجم (الدكتور الجسماني)

أولاً :- مبتكرات

Students Attitudes Towards Various
Aspects of Teachers Training
A Psychological Study
H. Dep . Ld . Psych

Psychological Reserich Into Progressive
Educational Theory and Practice
M. Ed. Psych.

Mc Dougall,s Hormic Theory and
its Influence On Subsequent
Psychological Thought.
Ph . D

ثانياً :- كتب مؤلفة ومترجمة

- | | |
|-------|---------------------------------|
| ترجمة | - الطفل السوى وبعض الخرافات :- |
| | مقدمه عامه في سيكولوجية الطفولة |
| ترجمة | - المدخل الى علم النفس الحديث |
| ترجمة | - مآدبة افلاطون في الفلسفة |
| ترجمة | - مقدمة عامة في فلسفة التربية |
| تأليف | - سيكولوجية الطفولة والمراهقة |

- علم النفس العام
- علم النفس والتعليم
- علم النفس التربوي
- علم التربية وعلم نفس الطفل
- علم النفس وتطبيقاته التربوية والاجتماعية
- دراسات نفسية تربوية اجتماعية الجزء الأول
- دراسات نفسية تربوية اجتماعية الجزء الثاني
- دراسات نفسية تربوية اجتماعية الجزء الثالث
- دراسات نفسية تربوية اجتماعية الجزء الرابع
- اتجاهات الطلبة نحو مختلف جوانب إعدادهم
- دراسة نفسية - ميدانية
- البحث عن الذات دراسة نفسية تحليلية
- التربية المتجددة دراسة ميدانية
- علاجك النفسي بين يديك
- مذكرات فتاة مراهقة
- موسوعة علم النفس الفرآني والتهذيب
- الوجداني .. الجزء الأول
- دكتور جيكل ومستر هايد : قصة نفسية
- النظرية الغرضية النفسية وأثرها في تغيير اتجاهات
- علم النفس الحديث .. الجزء الأول
- الوراثة والسلوك الجزء الأول
- الوراثة والسلوك الجزء الثاني
- الأحلام وقواها الخفية
- رسائل نفسية لها قصة
- العلاج النفسي بين النظرية والتطبيق
- آفاق جديدة في علم النفس : الجزء الثاني
- تأليف (مع آخرين)
- ترجمة
- تأليف
- ترجمة
- تأليف
- تأليف
- تأليف
- تأليف
- ترجمة
- ترجمة
- تأليف
- ترجمة
- ترجمة
- تأليف
- ترجمة

- المجتمع المعافى

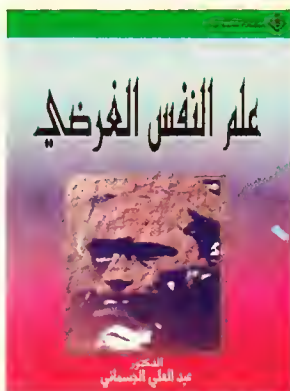
ثالثاً : كتب أنجزت بإشرافه

- التفكير الواضح

- علم النفس لكل رجل وامرأة

- القلق

كتب صدرت عن
الدار العربية للعلوم



ISBN 2-84407-856-8



9 782844 098566